إصدارات سطور الجديدة

د. محمد مصطفى الخياط

وطن
في حقيبة السفر
عن المكان والزمان والإنسان

د. محمد مصطفى الخياط

وطن في حقيبة السفر

يضم الكتاب قسمين، المحروسة فى المقالات وهموم من هنا وهناك. راصداً فى هدوء الكثير من الأحداث المحلية والعالمية بلغة أدبية تستقطر كلماتها من نبع الحروف فتقترب من حدود الرسم، وتخاطب القراء كافة.

لا تستغرق قراءة المقال دقائق معدودات، تتناسب وأولئك الذين يقتنصون اللحظات لزيادة معارفهم.

المحروسة بجلبابها وطرحتها، بوقفتها عند حافة الدلتا، المسافرة ضفيرتها حتى أخمص قدميها، بشعرها الذهبى الممتد فى صحاريها. تمرغتُ فى ترابها. قَبلتُ حباتِ رملها. تكحلتُ بطينها. صنعتُ إكليلَ غارٍ من سنابلِ قمحها، وصولجاناً من كافورها، وعطراً من عرقها. تحكى المقالات عن المحروسة، بأفراحها وأحزانها، برجالها ونسائها. هيكل، رضوى، شوشة، حجاب، بخيت، البيسى، وغيرهم. قوة ناعمة شكلت وجه الوطن.

بينما تتنوع مقالات القسم الثانى، هموم من هنا وهناك، بين أدب الرحلات، فى سنغافورة، دبى، مراكش، عُمان، أبو ظبى، دبى، إشبلية، غرناطة، برلين، وغيرها. وبين أنات الصدر وزفرات الألم وحرائق الضلوع، إثر التشظى والتشرذم والتفتت العربى أَسْلَمَنا إلى حمل الوطن فى حقائب السفر.

محمد مصطفى الخياط
٢٠١٧

إصدارات سطور الجديدة

الغلاف حسين جميل

عن الزمان والمكان والانسان .....

وطن فى حقيبة السفر

تأليف : د. محمد مصطفى الخياط

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر
طبعة سطور الجديدة ٢٠١٧

إصدارات سطور الجديدة

رئيس مجلس الإدارة: د. فاطمة نصر

المستشار الفنى: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com

وطن فى حقيبة السفر

ـ الكتاب: وطن فى حقيبة السفر
– تأليف: د. محمد مصطفى الخياط
mohamed.elkhayat@yahoo.com

– غلاف: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com
– المراجعة اللغوية: عمر حسن الشناوى

omar_shenawy@yahoo.com
الطبعة ج ٢٠١٧
رقم الإيداع: ٧٢٦٠ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى: 978-977-5296-38-2
جميع حقوق التأليف محفوظة للمؤلف
٨١٩ ش كورنيش النيل – القاهرة
كورنيش المعادى ت: ٢٥٢٤٠٠٢٠ / ٢٥٢٦٣٥٩٩

e.mail address:sutour@linh.net
الموقع الإلكترونى

www.sutour2.com
صفحة فيس بوك

www.sutouralgadida.com

بيانـــات الفهرســـة
د. محمد مصطفى الخياط
وطن فى حقيبة السفر
ط ١– (القاهرة: مكتب سطور للنشر ٢٠١٧)
مكتب سطور، ٢٠١٦
تدمك: ٩٧٨٩٧٧٥٧٩٦٣٨٢
١– وطن فى حقيبة السفر
أ – الخياط ، محمد (مؤلف)
ب– العنوان: ٨١٩ ش كورنيش النيل – القاهرة
كورنيش المعادى ت: ٢٥٢٤٠٠٢٠ / ٢٥٢٦٣٥٩٩

e.mail address:sutour@linh.net

الموقع الإلكترونى
www.sutour2.com

ص ٦

صفحة بيضاء

إهـداء

إلى أصدقاء العمر ...

إلى جروب "المنزلة أعز الناس" ...

الذين أبى الزمن أن يكبروا ...

فظلوا حبة عيال تتشاقى زى زمان ...

محمـد

ص ٨

صفحة بيضاء

تقديم

لم أتردد فى الموافقة على الدعوة الكريمة من الدكتور محمد مصطفى الخياط لكتابة تقديم هذا الكتاب .. ولعل تقديرى الكبير له ولدأبه وعشقه للثقافة والكتابة كان دافعا لعدم التردد فى قبول هذه الدعوة الكريمة ..

فلقد أتاحت طبيعة عملى الفرصة لقراءة كل كلمة فى المقالات التى يحتويها هذا العمل الأدبى الرائع قبل نشرها فى صفحات جريدة "الأهرام المسائى" .. وكنت فى الحقيقة استمتع بقراءة هذه المقالات التى كانت تتميز دائما بأسلوب مختلف يجذب القارئ بسلاسة عرض الأفكار المتنوعة.

الدكتور الخياط.. هو صاحب القلم الرشيق .. والأسلوب الجاذب فيما يبدع من مقالات على صفحات الرأى فى جريدة "الأهرام المسائى" .. وغيرها من الجرائد المصرية والعربية.

هذا الكتاب يمثل موسوعة أدبية وثقافية وإنسانية .. بما يحمله بين طياته من صدق مشاعر .. ورصد دقيق بعين متابع مثقف .. يتجول فى أنحاء العالم .. يطلع على كل جديد .. وينقل للقارئ مواقف

وطرائف من هنا وهناك .. ودائما ما كانت قضايا الوطن هى الشاغل الأول والأخير فى كل كتاباته.

وفى تقديرى أن القارئ الكريم سوف يستمتع بهذا الكتاب .. الذى يقدمه لنا مفكر مبدع .. تتجاوز مهاراته الأدبية تخصصه العلمى الدقيق فى مجال الطاقة المتجددة.

ماجد محمد منير

مدير تحرير «الأهرام المسائى»

ص ١٢

صفحة بيضاء

المحروسة فى المقالات

كلُ صباح وأنتَ بألفِ خيرٍ يا وطنى

وجه عربى أصيل تكسوه مسحة لطيفة من شمس إفريقيا السمراء. حوراء لم تر عينى أجمل من عينيها، حبتان بلون البندق، لامعتان، واسعتان، صافيتان، لوزيتان. طويلة كرمح شرقى قُدَ من صَوَانْ. مشدودة كوتر فى قوس رامٍ أوشك سهمه أن يفارقه صوب الطريدة. أبية، كجواد جبلى فتى أصيل استعصى على الغرباء. من لون شعرها صبغ المساء لياليه، ومن ذهب رملها لونت الشمس أشعتها، ومن بهاء وإشراق وجهها ابتسم القمر واستدار.

جلست بين يديها استقبل العام الجديد. عيناى لا تغادر عينيها. تدفئنى أنفاسها. يُشبعنى طعامها. يروينى ماؤها. تطمأننى سكينتها. تمددت على ترابها. أرحت رأسى على صدرها. توحدت فى نيلها. مددت ذراعاى ملء الأرض والسماء، استحالا فرعى نيل يتدفق فيهما شلال الحياة، يرتوى الأطفال والكبار، يُلبِسُ الأرض معطفاً أخضراً،

تُطِلُ النباتات برؤوسها من بين الشقوق، تتمايل السنابل طرباً وفرحا، تضيق المحروسة بأجران القمح وعقود الياسمين.

فى انتظار ميلاد عام جديد. نبتهل إلى رب السماء أن يكون عام خير وأمان. عام حب ووئام. يغمرنا تفاؤل، وتمتلأ قلوبنا بالصدق والإخلاص. تتجدد فينا الأحلام. تتبدد من حولنا الأوهام. وبقدر الإخلاص والعمل تتشكل الأيام. تُزهِرُ أو تجدب. نحبها أو نكرهها.

إيه يا وطنى المصلوب على بوابة الإنتظار والتردد. كم عانيت، كم قاسيت، وأبداً ما اشتكيت. تحتضن بنيك، فراخاً صغاراً بلا ريش، بلا مناقير، تتعثر خطاهم، ضعاف بلا حول ولاقوة. تغمرهم بدفئك، بحنانك، برعايتك، حتى إذا ما شبوا، تفرقت بهم السبل وتركوك قائما.

برغم الإرهاب سوف نغنى لغد يعم فيه السلام، تبنى فيه العصافير أوكارها ولا تخشى رصاصة غدر. سوف نغنى لغد تصدح فيه

المساجد والكنائس بترانيم السلام. يُشبك قسٌ وشيخٌ كفيهما ويرددان معاً تراتيل الصباح وتسابيح المساء. سنمشى معاً، قدمٌ على قدم، وصوتٌ على صوت، وعندما يحين أوان الرحيل سوف تردد المآذن نداء الحياة "الله أكبر" بينما يتداعى فى الفضاء صدى أجراس الكنائس.

برغم الشهداء وبرغم الجرحى، سيأتى غد نمسح فيه دموع اليتامى، والثكالى، والمكلومين. غدٌ نمسك فيه بيد اليتيم، حتى لا ينسى الأب. نقبل جبين الثكلى حتى لا تنسى الأبن. نقف إلى جوار أرملة، حتى لا تنسى الزوج. يصبح وطنى أبٌ، وأمٌ، وزوجٌ، وابن. سيأتى غدٌ تتفتح فيه زهور المدارس عناقيد حب وخير وضياء، وتلهو فيه الفراشات بخيوط الشمس. غدٌ نمسكه بين أيدينا حاضراً لا يغيب.

برغم الصعاب، برغم المشاق، برغم التعب يتدفق عطاؤك يا محروسة شلال خير. من أين جئت بكل هذا العطاء، من أين جئت بكل هذا الكبرياء. هل قدرك أنك أنت الكبرى، هل قدرك أنك أم الدنيا. إيه يا وطنا صار هواءً نتنفسه. وصلاة مقدسة نقيمها. تسبيحتى أنت، قبلَتى أنت. عطرُ فمى أنت.

ها هى المحروسة تشرق كل صباح، سخية مثل غيمة شتاء، نقية مثل غيمة صيف، يختفى وجهها خلف ابتسامة العطاء، تبحث عن يد تبنى، عن قدم تسعى للخير، عن قلب حليبى مخلص، عن ساعد قوى يصد ويرهب، عن أذن خير، عن لسان حق، عن قلم صدق، عن عين

الحقيقة ولا شئ سواها.

نعم، من حر آهات العطاش سيبزغ الفجر الجديد، من حر آهات العطاش سيبزغ الأمل الجديد، وها هى المحروسة تغمس إبهامها فى طمى النيل وتكتب على ستائر الشمس كل صباح "طوبى للمخلصين، طوبى لمن حفظ الوطن". حفظ الله الوطن.

جريدة الأهرام المسائى – ١ يناير ٢٠١٦

أوجينى ١٨٦٩ .. المحروسة ٢٠١٥

إمرأة مسكونة بالرغبة فى السلطة. تتكأ على ذكاء متوقد كفل سلامتها من المؤامرات. خمرية اللون. جمالها محايد لا شرقى ولا غربى. تغمرها عباءة من غموض وجاذبية. ذات كبرياء. عصية على الإنكسار. ولدت فى غرناطة. عاصمة ثمانية قرون من المجد العربى الضائع تحت سنابك التفكك. ظل الشطر الأول من نبوءة العرافة وقوداً يؤجج رغبتها. النبوءة من شطرين الأول "تبلغين المجد"، والثانى "ستكابدين فى أيامك التالية". بزواجها من نابليون الثالث، إمبراطور فرنسا تحقق الشطر الأول. فلما أفل، عاشت الشطر الثانى. تلك هى أوجينى، التى نُسجت حولها الحكايا والأساطير خاصة عن افتتان الخديوى إسماعيل بها وما أعده لها إبان افتتاح قناة السويس فى نوفمبر ١٨٦٩.

تشير بعض الدراسات أن القناة كانت حلماً فرنسياً يبحث عمن ينفذه. بشهوانية استعمارية تتعلق عيون الدول الأوربية بالكنوز الإفريقية. لم تسمح السنوات الثلاث التى قضاها الفرنسيون فى مصر بحفر القناة. تجسد الحلم الفرنسى فى ربط البحرين الأحمر والمتوسط عبر قناة صناعية بإنشاء جمعية لدراسات قناة السويس. الحلم الفرنسى المراوغ يحمل معه صراعاً خفياً ضد انجلترا، القوة العظمى المناوءة فى ذلك الوقت.

تُعبر الحروب التى شبت للسيطرة على القناة عن أهميتها العالمية. فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ أصدر الرئيس عبد الناصر قرار تأميم القناة رداً على سحب أمريكا وإنجلترا والبنك الدولى عروض تمويل بناء السد العالى، فكان العدوان الثلاثى فى أكتوبر من نفس العام. تلاها، حرب الأيام الستة وإغلاق القناة لنحو ثمان سنوات وإعادة افتتاحها فى يونيو ١٩٧٥، ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣ وقدرة المقاتل المصرى على تحويل القناة من مانع مائى إلى جسر عبر عليه واستخدم مائها كمذيب للساتر الترابى لينكشف خط بارليف عارياً. ومؤخراً المحاولات اليائسة من جانب الإرهابيين للنيل منها، ولكن هيهات هيهات، فتلك أمانيهم.

تنقل القناة حوالى ٨٠٪ من نفط الخليج العربى إلى أوربا والولايات المتحدة عبر خط أنابيب السويس البحر المتوسط "سوميد". توفر القناة حوالى ١٠ آلاف كيلومتر من مسار رحلة تدور حول إفريقيا عبر رأس الرجاء الصالح. بلغ إجمالى السفن المارة بالقناة سنوياً حوالى سبعة عشر ألف تدر على خزانة الدولة ستة مليارات دولار، ليتأكد للجميع أهميتها للاقتصاد الوطنى.

للقناة الجديدة أكثر من دلالة، أقواها سرعة الإنجاز وتفرد التمويل. بحسب التخطيط قُدرت ثلاث سنوات للإنتهاء من المشروع، خُفضت إلى واحدة بناء على توجيهات السيد الرئيس. أما التمويل

فلأول مرة يحشد المصريون عشرات المليارات من خالص أموالهم لتمويل مشروع وطنى دون حاجة إلى تمويل أجنبى. تسعة عشر يوماً هى الفارق الزمنى بين صدور القانون رقم ١١٩ لسنة ٢٠١٤ المنظم لشهادات استثمار قناة السويس وإغلاق الاكتتاب. المحصلة ٦٤ مليار جنيه تكفى لحفر القناة وتوسيع وتعميق المسار القديم.

آلية التمويل الفريدة تغرى باستخدامها فى تمويل مشروعات الطرق، الكهرباء، والمياه. بشكل عام يمكننا تمويل مشروعات البنية التحتية ذاتياً وفى أزمنة قياسية تكفل نقل المحروسة عشرات السنين للأمام.

أيضا، تعكس القناة الجديدة قدرة الدولة على الإنجاز بغض النظر عن سلبيات المناخ المحيط. وضوح الهدف وتحديد مدة زمنية هما كلمتا السر فى المشروع الذى ستكون المحروسة نوارة حفل افتتاحه. المحروسة بجلبابها الفلاحى الفضفاض، ونقوشة الزاهية هى قبلة عيون العالم. المحروسة لؤلؤة تاج العرب هى حديث المحافل والصحف العالمية. فى صفحة القمر تنعكس صورة المحروسة بشعبها الطيب، وشمسها الدافئة، ولياليها الساحرة، وهناك تتوارى أوجينى خجلاً أمام بهاء المحروسة.

جريدة الأهرام المسائى – ٣١ يوليو ٢٠١٥

لوحة على سطح القناة

شيخ معمم. حفظ القرآن منذ صغره. أهله نبوغه وتميزه إلى امتلاك عين ناقدة وفكر تحليلى. امتدت دارسته إلى الفلك والهندسة. ورث ثروة أغنته عن التقيد بعمل نظامى. طاف بر مصر وهو فى أوائل العشرينات من عمره السبعينى. سجل، وشرح، وحلل، واستنتج. رسمت سطوره وجه المحروسة، جوهرة تتخاطفها أيدى المماليك، فلتة جغرافية فى عيون الفرنسيس، صخرة أسس عليها محمد على ملكه. كتابه "عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" هو حصاد خمسة عشر سنة من الطواف والتأمل. اليوم، يجوب الجبرتى دروب المحروسة، شوارعها، مكتباتها، صحفها، يتنقل تائها، زائغ العينين متسائلاً من يكتب تاريخ الوطن.

يا سادتى الكرام، تاريخ المحروسة ليس كأى تاريخ. شق قناة جديدة ليست كأى قناة. ربط البحرين الأبيض والأحمر يجمع ثلاث قارات فى نقطة واحدة. للمحروسة شراعان أحدهما فى آسيا والآخر فى إفريقيا. السير على وتر مشدود مرهون بحفظ التوازن. كتابة التاريخ تشترط الحياد والموضوعية. ما يجرى فى بر مصر الآن يحتاج إلى توثيق بالصوت والصورة مجسداً رؤية قيادة وإرادة شعب.

مع كل صباح تتجدد الأمنيات، تحويل بحر من الرمال إلى قناة

ليس مستحيلاً. أجدادُنا حفروها بأظافرهم. نقلوا حبات رملها فى كفوفهم. كحلوا عيونهم بطينها. توضؤا بمائها، وعندما سقط الجسد كليلاً توسد الخد بطن القناة، أسبلت الجفون، وقبلت الشفاة ترابها المعجون بعرق الأجداد، المصبوغ بلون الجباه. من بلد بلغ تعداده نحو أربعة ملايين نسمة شارك حوالى المليون فى حفر القناة. تعاقبت ساعداً بعد ساعد، وقدماً بعد قدم. عشر سنوات هى الفارق بين أول ضربة فأس وآخر حفنة رمل.

اليوم، تحولت الكفوف إلى كراكات عملاقة، والسواعد إلى سيارات نقل. والدواب إلى شاحنات. أول الغيث قطرة، وأول القناة حفرة. مسبحة الرجال حبات عرق تستحيل تحت ضوء الشمس عقوداً من لؤلؤ حول السواعد، وأكاليل غار فوق الجباه، تتباين فى زواياها الألوان. عمالية قُدت من نحاس، جاءوا من زمان غير الزمان، ومن مكان غير المكان، طيور أسطورية، بيتها الشمس، وفضائها الكون.

وفى ليالى السمر يتحلق البسطاء العظماء، يتضاحكون، يتصايحون، يعودون إلى بشريتهم. تنعكس خيالاتهم فى صفحة القمر، بهية، نقية، نراها، تتسع حدقاتنا، ترتفع آهات الأعجاب. يتزاحمون فيما بينهم، يتمايزون، ينحصر اللون الأبيض بين الأسود والأحمر، يرفرف علم المحروسة فى دارة القمر. يسرع الجبرتى إلى ريشته، يغمسها فى القناة ويكتب على جسد الوطن آلاف الحكايا والقصص،

يرسم وجوهاً شابة وأخرى متغضنة، شارب كث وآخر حليق، ربطة عنق وشال، بينما كانت أجمل ابتسامة من فم به سنة سمراء مكسورة.

يا سادتى الكرام، ضاقت الأوراق بالكلمات، وأنّت السطور بالحروف فتداعى فى الفضاء صدى صوت شوقى مخاطباً أم الدنيا "وتعطلت لغة الكلام وخاطبت عينى فى لغة الهوى عيناك". يا سادتى الكرام، أحجار هذا الوطن من عظامى، وماؤه دمى، وهواؤه أنفاسى.

إيه، لولا النقش على الجدران ما عرفنا الفراعنة، ولولا تقى الدين المقريزى ما عرفنا المماليك البحرية والبرجية. ولولا أوراق المسعودى ما عرفنا الهند والسند. الصوت والصورة والقلم هى أظافر التاريخ إما أن يكتب بها حفيظ أمين أو يخمش بها جاحد مستبد. يا سادتى، تاريخ مصر ليس للهواة. نحن أولى بكتابته.

وها أنذا أرى الجبرتى يبعث من جديد فى عباءته، يحمل أوراقه ومداداً استقاه من ماء القناة، يدون، يرسم، يحكى تاريخاً نقياً نقاء دماء الشهداء، وبهياً بهاء وجه المحروسة. حفظ الله الوطن.

جريدة الأهرام المسائى – ٦ أغسطس ٢٠١٥

حضن الوطن

رأيتها تجلس فى هدوء وسكينة، فتتسرب الطمأنينة إلى ما حولها من كائنات. تتجول بعينيها الصافيتين الكحلاوتين فيما حولها، فيسكن الإضطراب، ويتنفس الهدوء. رأيتها عند حافة الدلتا تسافر ضفيرتها مع امتداد النهر. أيهما المبتدأ، وأيهما الخبر. هل كانت سبباً فى وجود النيل، أم أن وجودها أضفى له معنى فريداً. من ضفيرتها الممتدة حتى أخمص قدميها صنع النيل مجراه، ومن شعرها الذهبى المنسدل على أكتاف فتية تكونت صحارى الشرق والغرب. كنيتها بهية، والمحروسة، وأم الدنيا، والكنانة، وإسمها مصر.

اعتادت مصر أن يظل بيتها مفتوحاً ليل نهار، يحج إليه الغرباء، إما عبوراً أو إقامة. لا أدرى اسم أول من قدم مصر مهاجراً بحثاً عن أنس وأمن، لكننا متى أبحرنا فى تاريخها وجدنا مزيجاً فريداً من وجوه المهاجرين، أجناس عدة، سمر، صفر، بيض. منهم من اتخذها مستقراً ومستودع، ومنهم من عبرها بعد أن تزود من خيرها فعاد يحكى عن أم الدنيا.

ارتبطت مصر بالدين، فجاء ذكرها فى التوراة، والإنجيل، والقرآن. نشأ موسى عليه السلام على ترابها، وعبرها المسيح طفلاً مع أمه. أنبتت قديسين وشيوخا. نشروا المسيحية فى أوانها، وبلغوا الإسلام

من بعد. فذت فى علوم الدين، فصدقت مقولة مولانا الشيخ الشعراوى بأنها البلد الذى صدر علم الإسلام للبلد الحرام. قصدها أهل البيت فكانت سكن سيدات بيت النبوة ومثوى مقام سيد شباب أهل الجنة. جاءها الشافعى رضى الله عنه بحثا عن بيئة خصبة لنشر مذهبه الوسطى، ودفن بها العارف بالله أبى الحسن الشاذلى المغربى الأصل. ونزل بها الشيخ الكردى فكانت مهداً لذريته وحصناً لمريديه. قبلة العلم أزهرها الشريف، علم خالص يستند إلى عقل ومنطق.

لا يذكر التاريخ أن مصر نبذت ضيوفها، قصدوها غرباء فضمتهم لأبنائها، انقسم السودان فصارت بيوتها سكناً لبنيه. احترقت بغداد فآوت مشرديها. سقطت ليبيا فشطرت رغيفها مع مهاجريها. تفتتت سوريا فضمت أبنائها فى صدرها. شبت النار فى اليمن فكانت برداً وسلاماً على أهلها.

تشير التقديرات بوجود نحو خمسة ملايين مواطن عربى فى مصر، أى أكثر من سكان بعض بلدان الخليج العربى، وتقريبا نفس تعداد لبنان. وبرغم ضيق ذات اليد، آوتهم مصر وما اشتكت، آمنتهم بعد خوف، مؤكدة انها أم لكل العرب.

لم تتأثر مصر بغازٍ، فمن جاء رحل، ترك من خلفه آثاراً تدل عليه، لكن لا ثقافة تورث، ولا لغة تستخدم. هكسوس، آشوريين، فرس، يونانيون، بطالمة، رومان، بيزنطيون، مماليك، فرنساوية، حتى الإنجليز

قدموا بالشاى والسلاح، فبقى الشاى ورحل الإنجليز، على النقيض بقيت الفرنسية فى المغرب العربى لغة تأبى أن تغادر لسانه.

أمام شاشة التلفاز، لم أتمالك نفسى أمام مواكب المهاجرين سوى أن أرتمى فى حضن أمى، تمرغت فى ترابها، قبلت حبات رملها، تكحلت بطينها، صنعت إكليل غار من سنابل قمحها، وصولجاناً من كافورها، وعطراً من عرقها. قبلت يديها السخيتين. خبأت رأسى فى صدرها. ملئت رئتى من هوائها. أغمضت عينى، تساقطت دموعى مطراً فنما العشب من بين أصابع قدمى، سجدت شكراً لبارئها وحمدت الله أن أمى بخير. حفظ الله الوطن.

جريدة الأهرام المسائى – ٢٥ سبتمبر ٢٠١٥

هذا المكان أحبه

شباب، جاءوا من تلافيف القرى. هبطوا المدينة للدراسة. غُرباء، يتحسسون طريقهم فى وجل. يُخَبْئون قرويتهم فى ملابس المدينة فتكشفهم لهجتهم الريفية. أول مدينة تراها عيونهم، أول أرض خارج محيط الشارع والحارة تطأها أقدامهم. شباب، مشبوبةٌ عواطفهم يبحثون عن الحب فى عيون صباياها الساحرات. نسجوا من خيوط الخيال بيوتاً من ذهب، وقصوراً من فضة. أحبوا، غضبوا، افترقوا، تصافوا، ومضى كل فى طريق.

المنصورة، نزلناها شباباً، وزرناها شيوخا. لنا فى كل طريق قصة، وفى كل شارع رواية، وفى كل أمسية قصيدة. غادرناها منذ أكثر من ربع قرن. فى سعينا المحموم عن ذواتنا، تعثرنا، تساندنا، مشينا، عدونا، وما زالت الدورة تتكرر من حين لآخر. تشدنى للمنصورة، رائحة الصبا ونزق شباب غض. شارع البحر، جزيرة الورد، شارع الجلاء، السكة الجديدة، ميدان أم كلثوم، الكورنيش، المشاية. باختصار، هذا المكان أحبه.

منذ أيام قلائل، دعيت إلى مؤتمر نظمته كلية العلوم بجامعة المنصورة. كالعادة، وافقت دون تفكير. تقديم محاضرة افتتاحية فى مؤتمر يضم أطياف مختلفة يتطلب مراعاة بساطة العرض وجذب

اهتمام الحضور. مَثَلَ الطلاب أكثر من ثلثى الحضور. الحديث عن الطاقة المتجددة بطبيعته ضد الركود، وضد الملل. يتجدد كل صباح ما مدت الشمس خيوطها لتدفئنا.

على خلاف ما اضحت عليه الكثير من مؤسساتنا التعليمية، بهرتنى مبان الكلية بنظافتها، ونظامها. على الرغم من ضعف الإمكانات المادية، بدا التنظيم جيداً دون حاجة إلى شركة متخصصة تُثقل كاهل الجامعة. الاعتماد على الموارد الذاتية وحسن توظيفها يحقق نقلة نوعية تتضاعف عوائدها مع تكرار الحدث، وتتعاظم حال توافر متطلبات تنميتها.

شارك العديد من الطلاب فى الإجراءات التنظيمية. للوهلة الأولى، تدرك أنهم تدربوا على أدوارهم بشكل جيد. تسجيل البيانات، التصوير، توجيه المدعوين إلى قاعات المؤتمر، لوجستيات الوصول والمغادرة، وتفاصيل أخرى أتقنها الطلاب تحت إشراف أساتذه متميزون.

غياب محاضرين من الوكالة الأوربية لأبحاث الطاقة النووية بسويسرا، والمعروفة اختصاراً باسم "سيرن" للمشاركة وتقديم خبراتهم جراء ضعف الإمكانات المادية تم تلافيه بإجراء "فيديو كونفرنس Video Conference عبر الإنترنت. علمياً، يعد "سيرن" أضخم مختبر فى فيزياء الجسيمات ذات الصلة المباشرة بابحاث الطاقة النووية. فى منتصف الثمانينات وأوائل التسعينات حصل ثلاثة

من علمائه على جائزتى نوبل فى الفيزياء. بدأت الوكالة عملها عام ١٩٥٤ بالتركيز على أبحاث الذره، إلا أنها سرعان ما انتقلت إلى أبحاث فيزياء الطاقة.

أيضاً، لم يخل المؤتمر من محاضرات تشرح أسس الفيزياء وتشابكاتها فى لغة مبسطة، سبحت بنا من التفسير الساذج للظواهر الطبيعية، كسقوط المطر، وهبوب الرياح، وفيضان الأنهار، إلى الفهم العميق للظواهر الفيزيائية والتنبوء بها. مسيرة الإنسان عبر طريق بدء من الأسطورة ووجود قوى خارقة فوق مستوى البشر، وصولاً إلى العلم المفَسِر والباحث عن علاقة السببية. رحلة بدأت من معادلات إقليدس، وابن سينا، والخوارزمى، ونيوتن، ففلسفة كانط وبور، وصولاً إلى نظرية النسبية لأينشتاين، وفيزياء ماكس بلانك ونظرية الكم التى جاءت لتفسر الظواهر على مستوى الذرة والجسيمات. إثبات وجود "طاقة مظلمة Dark Energy" تحد من تمدد الكون، والبحث عن تصورات لما كان عليه الكون قبل الخليقة، أو ما يسميه الفيزيائيون "قبل الانفجار الأعظم"، وترقب ميلاد علم جديد من علوم الفيزياء يمكنه شرح وتبسيط فكرة الزمان، ليواصل الإنسان رحلته فى فك المزيد من أسرار الكون مدفوعاً بحمى المعرفة تارة، وبالفضول تارة أخرى. ترى عند أى حد يتوقف سعيه.

جريدة الأهرام المسائى – ٢٢ أبريل ٢٠١٦

تأخرتْ رضوى.. فاعذرينى

مصرية حتى النخاع. امتلكت ناصيتى الأدبين العربى والإنجليزى. مفتونة بالحكايات. كتاباتها نقوش ومنمنمات. تستغرقك حين تقرؤها. على سطح أوراق رواياتها تحسست وجوه مريمة وعلى فى غرناطة. السيدة شجر فى أطياف. رقية وحسن فى الطنطورية. أتعجب كيف تمسك بمفاصل الحروف، ترصها جنباً إلى جنب. تلضم خيط سردها من معين فريد تتجدد تعبيراته. تغمس حروفها وكلماتها فى قنانى التاريخ، فما إن تستخرجها حتى يغير الزمن عقاربه وتتذلل عند سن قلمها المفردات والصور العتيقة.

اتعبتنا رضوى عاشور بكتاباتها ورحيلها. ترى من أى معين شربت لقاح جَلَدِها، من أين أتت بهذا الصبر على الحروف حتى تتلألأ بين يديها مشكاة من نور. لرضوى كلمات وتراكيب لا يعرف سرها سواها، ما إن تمسك بالقلم حتى ينساب بين يديها جدولاً ونهرا، نيلاً وفراتا.

رضوى أيقونة شتات. أُبعد "مُريد" عن مصر، فخرجا يقبضان بكفيهما الكبيرتين على كفى تميم الصغيرتين. العودة للقاهرة. طلبات السفر. السماح والمنع. القلق والترقب. الرجاء واليأس. القرب والبعد، جميعها مرادفات عايشتها وعاشت معها. أسدلت الخلفية الفلسطينية

لمريد على حياتهما ظل شتات. تبعثر الأهل بين البلاد، عربية وأجنبية. الزيارات الخاطفة. اللقاءات العابرة فى المطارات. برقيات التهنئة والعزاء. سفر أبناء الجيل الثانى إلى أوربا وأمريكا. البحث عن أليف. تغيير وثيقة السفر. حكايات عابرة عن يافا ودير ياسين والقدس. دموع وضحكات.

رضوى شلال حكايات ينبع من جبل أبى قبيس، تنساب كلماتها فوق السطور، ينمو العشب الأخضر على الضفتين، تسافر الشمس بين ضفتى الكتاب. أُلقى بوصلة القراءة خلف ظهرى. أتوه بين المبتدأ والخبر. تشق رضوى ضباب حيرتى. تمد يدها فى هدوء، فتستحيل شراعاً من نور. تتلألأ بين أناملها قناديل الكلمات وثريات الجمل. أقرأ فى نورها غرناطة، مريمة، الرحيل، أطياف، تقارير السيدة راء، الطنطورية، أثقل من رضوى، قطعة من أوربا، وغيرهم كتب كُثُرٌ.

تأسرنى كتابات رضوى ولا أشتهى الإياب. أقرأ "قطعة من أوربا" تلك التى نسجتها فى صبر لا أتصور أن كاتباً يطيقه أو يتحمله. حبستنى فى مخطوطات تطوير مصر لتصبح قطعة من أوربا. كيف رسم المصممون شوارعها وزخرفوا مبانيها القديمة. انطقت الأحجار فروى كلٌ قصته. تنهدت الجدران والزاويا وهمست فى أذنها بأسرارها فدونتها فى أوراقها وجَلَسَتْ تنتظر فى صبر من يأتى لتنفيذها.

أتسائل، هل منا من لم يقرأ الطنطورية ذلك التسجيل الحى

للشتات الفلسطينى صوتاً وصورة، كيف استخرجت رضوى عروق الكلمات من جبل التاريخ، كيف نظفتها من رمال التزييف وهى التى ما زارت دير ياسين ولا مشت فى شوارع نابلس ولا قطفت ثمار عروق الزيتون ولا برتقال يافا. هل منا من لم يقرأ ثلاثية غرناطة، هل منا من لم يقابل مريمة، وعلى.

كنت فى زيارة عمل لأسبانيا مددتها ليومين رافقتنى فيها مريمة. سرنا فى شوارع غرناطة، وحى البيازين، والصنادقية، والخيامية، والنحاسين. نزلنا شارع حدرة وعلقنا قلوبنا على باب الرملة، وتحسسنا بأيدينا المرتعشة آيات القرآن على باب كنيسة إشبلية، أقصد المسجد الجامع. بكت مريمة وبكيت، واليوم تعاود مريمة البكاء لتنعى رضوى. فارقتنا رضوى منذ عام (٣٠ نوفمبر ٢٠١٤) لتجاور مريمة فى قبرها. مريمة التى كابدت تباريح الفراق والرحيل عن غرناطة مع حفيدها "على" الذى يصف قبرها بقوله "لا وحشة فى قبر مريمة". اليوم تتمتم مريمة فى سكينة "اللهم ارحم رضوى". فأردد خلفها "اللهم ارحم رضوى". اخفض رأسى فى حياء واتمتم "تأخرتُ رضوى فى رثاءكِ فاعذرينى".

جريدة الأهرام المسائى – ٢٥ ديسمبر ٢٠١٥

الصرخة

جائنى صوت الدكتور أسامة الجبالى- مدير مشروع الطيور الحوامة التابع للبرنامج الإنمائى للأمم المتحدة- عبر الهاتف فرحاً جزلاً يُبشرنى بأننى ضمن قائمة المكرمين فى احتفال هذا العام بيوم البيئة العالمى. للرجل جهود جليلة فى الحفاظ على الطيور المهاجرة. فى العادة لا يأتى التكريم من الأقربين، وعادة ما أخجل أن أذكر أننى كُرمت أو ضمن قائمة مكرمين. دائماً وأبداً، أرى عملى فى مستوى أقل من كلمة الشكر. أسررت إلى بعض المقربين بالأمر. ذكرت الموعد والساعة والمكان. مر الأمر بسيطاً وعادياً. أنتظرت أن أُسئل عن مزيد من التفاصيل. ربما طمعت فى مشاركتهم. لم يحدث.

فى هدوء. أعاود دفن رأسى بين صفحات كتاب "الصرخة" للراحلة رضوى عاشور. أهيل ركام الكلمات، استنشقها، أتنفسها. الكتاب هو الجزء الثانى من سردها الذاتى لحياتها، حيث صدر الجزء الأول تحت اسم "أثقل من رضوى". لا تأتى خصوصية الكتاب من كونه استكمالاً لحياة روائية من طراز متميز فقط، بل وأيضا من ملابسات إصدار الرواية. سجلت رضوى فى كتابها تفاصيل تجربتها الشخصية مع مرض شرس هاجمها بضراوة. سلمت مسودة كتابها إلى دار النشر تمهيداً لمراجعتها لاحقاً. لكن المرض لم يُمهلها. حسناً فعلت دار النشر حين نشرت الرواية كما هى. ففى لحظات الضعف تسجل مشاعرك

دون مواربة، تهمس بها إلى قارئك، تراه الأقرب إليك. شفافاً تكون. نورانياً تُصبح.

هل كان قدر رضوى أن يكون آخر كُتبها بعنوان "الصرخة". هل كان الكتابُ تلخيصاً لمحاولاتها المستميتة ضد الاستسلام لواقع مقيت يخنقنا فى صمت. ربما. فى لحظات المرض، تقف حائراً فى مساحة الما بين، تلك التى لا تدرى فيها صواب من خطأ، ولا خطأ من صواب. تُفصح رضوى من دون مواربة عن ذلك قائلة "أسوأ ما فى المرض أنه يُربك ثِقتك بنفسك فيتسرب إليك الخوف من أنك لا تصلح، ولن تستطيع". يا رضوى، ليس هذا فقط ما يُفقِدنا الثقة فى النفس، فالتجاهل أيضاً له ذات التأثير.

فى مزاد استمر لإثنتى عشر دقيقة، بِيعَت لوحة "الصرخة" للفنان النرويجى إدفارت مونش بمبلغ ١٢٠ مليون دولار. استهلت رضوى كتابها بالتعليق على اللوحة وسعيها لزيارة متحف يضمها إلى جانب أعمال أخرى لذات الفنان، وأمنيتها أن توافق دار نشر كُتبها على استنساخ الصورة على غلاف الجزء الثانى من سيرتها. للصورة أربع نسخ، ثلاث منها ملونة، والرابعة رسمها مونش باللون الأسود "الليتوجراف" عام ١٨٩٥، وهى تلك التى تمنتها رضوى، وأيضاً التى صَدرَ بها الكتاب.

على المستوى الإنسانى، لا أتحمل النظر إلى اللوحة، فمن قبل

قرائتى كتاب رضوى وأنا أتحاشى النظر إليها ما جمعنى وإياها فضاء. وكثيراً ما كنت أتساءل، كيف رسمها مونش. كيف تحمل صياغة تفاصيل هلع إنسانى يقترب بتفاصيله من الموت منه إلى الحياة.

بين صرخة مونش فى لوحته، وصرخة رضوى على صفحات كتابها، وأنين حلوقنا من صرخات صمت تسكنها، تُهاجر إلى صدورنا طيور الأمل، تُعشش فيها، نضم عليها الضلوع. تَفرد أجنحتها البيضاء. تتأهب للطيران. تشرأبُ رقابها، تلفحها ريح صرصر عاتية. تسكن قليلاً، لكنها لا تلبث أن تنطلق من محبسها ذات صباح باكر، تزكم فيه أنوفنا رائحة حقول حِنطة، تختلط فيها أنفاس السنابل بعبير عرق الفلاحين البسطاء. تشرع الطيور أجنحتها فى قوة. تشق أجواز الفضاء صوب قرص الشمس. تُغمض المحروسة عيونها فى طمأنينة، وتنتظر غد لا محالة آت.

جريدة الأهرام المسائى – ١٠ يونيو ٢٠١٦

إمام المعلوماتية

"وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهداةُ به كأنه علمٌ فى رأسه نارٌ" وجدتنى أردد هذا البيت عندما قرأت نعى العلامة الدكتور نبيل على، رحمه الله. أما البيت فهو من قصيدة ترثى بها الخنساء أخاها صخرا. لم أشغل بالى بالربط بين توارد البيت وفجيعتى فى إمام علم المعلوماتية والبرمجيات. أول من أنطق الحاسب اللغة العربية عبر كمبيوتر "صخر".

العرب وعصر المعلومات، الفجوة الرقمية، العقل العربى ومجتمع المعرفة، وغيرها من مؤلفات العلامة الدكتور نبيل على خريج هندسة الطيران. الضابط بالقوات الجوية فى أصعب فتراتها. خبير الحاسبات واللسانيات. تحملنا كتاباته إلى عوالم فريدة، فسيحة، تمتد تضاريسها دون تقاطعات. الثقافة، الاقتصاد، علم الاجتماع، السياسة، الهندسة، الفن التشكيلى، الجغرافيا، التاريخ، الأدب العربى كلها تلتقى، تأتلف، تتناغم فى كتاباته.

منحته خلفيته الهندسية براعة تبسيط المنظومات المعقدة إلى مكونات أصغر. يفكك أجزائها فى حرفية ومهارة، ويعيد تركيبها فى أشكال غير مسبوقة. علمنا إعادة التفكر فيما يحيط بنا من ثورة رقمية وطوفان معلوماتى هادر جراء تحول الذرات إلى (بتات Bits)، بمعنى

تجريد المحتوى المعرفى الساكن والمقيم فى مخطوطاتنا، وأوراقنا، وخرائطنا من طبيعته المادية "ذرات" إلى نبضات قوامها صفر وواحد. لم تعد القضية أن تجد المرجع الذى تبحث عنه، بل صارت كيف يمكن تحليل محتواه، ثم إعادة صياغته فى أشكال وأنماط تخاطب الفكر، وتحثه على الإبتكار والإبداع. تحول الاقتصاد من كيان يعتمد على العتاد والمكونات المادية إلى فضاء معلوماتى يتجاوز الحدود ولا يعترف بالجغرافيا، ويحصد الأرباح. فى عام ٢٠١٤ حققت شركة جوجل ٦٦ مليار دولار كصافى أرباح لتتقدم على نحو مائة دولة.

تخبرنا النظرة الفاحصة للمجتمعات فى الدول النامية والمتقدمة، اشتراكهما فى المشاكل واختلافهما فى الرؤية. فى أوائل الثمانينات، صدر تقرير "أُمة فى خطر"، منبهاً إلى تأخر العملية التعليمية فى أمريكا. أيضاً، يأتى التعليم على رأس الأولويات فى مصر. بقى أن نعرف أن أمريكا تأتى فى المركز الثالث على مقياس التنافسية العالمية الصادر عن المنتدى الاقتصادى العالمى عام ٢٠١٤، بينما تحتل مصر المركز ١١٩ من بين ١٤٤ دولة. نعم هى ذات القضايا، لكن شتان بين المعنى هنا وهناك.

تمتد رؤى الدكتور نبيل لتحليل أساسيات ومحاور تقدم الدول، امتلاك أصول المعرفة، المشاركة فى صياغتها، تطويعها لخدمة الوطن، وضع رؤى المستقبل فى قالب معلوماتى، ربط نظم الإدارة بالاقتصاد،

بالسياسة، بديموغرافيا السكان، اتاحة وتوافر المعلومات لكل أبناء الوطن وصولاً إلى أرقى مستويات الإدارك، المعرفة. حتمية أن تنقلنا نظم التعليم بسرعة الضوء من كهوف الجهل إلى ثريات المعرفة فى زمن تتسارع فيه العلوم بشكل لا يعطى فرصة للتوقف لإعادة ترتيب وصياغة العقل العربى، بل صار لزاماً علينا أن نتحرك ونتطور فى آن واحد.

قاده شغفه باللسان العربى إلى الغوص فى بحار اللغة الفريدة، البحث فى تراكيبها، أساسيات بنائها، ملامح تفردها، شموليتها، إسهابها، اختزالها. تعبد فى الكلمة، والجملة، والفقرة وصولاً إلى كشف دلالات النص المراوغ. نتأمل رؤاه البعيدة من كهوف جهلنا فلا نفهمها، نعدو إليها على مطايا العلم المشوه فلا ندركها، شابت شعورنا، شاخت أفكارنا، وانحنت اكتافنا وما زلنا فى وقفتنا المترددة بين خيارات البقاء والفناء. بينما يقف الإمام فى صبر منتظراً استواء الصفوف حتى يشرع فى الصلاة. رحم الله العلامة الدكتور نبيل على.

جريدة الأهرام المسائى – ١٨ مارس ٢٠١٦

الفارسُ لا يترجل

أوائل السبعينات. طفل لا يتجاوز العاشرة من عمره، يجلس على رصيف الشارع، صغير الحجم تتدلى ساقيه من على الكرسى، يجلس قبالته رجل أسمر البشرة يستمع فى اهتمام إلى ما يقرأه الطفل. يُمعن التفكير أحياناً، يُصوب نطق الطفلِ كثيراً. طقس أسبوعى امتد لسنوات. يتكرر صباح كل يوم جمعة. الأب يشترى جريدة الأهرام، يبحث عن مقال بملء الصفحة، يناول الجريدة للطفل فيقرأ "بصراحة، بقلم محمد حسنين هيكل". لا يعى الطفل ما يقرأ. تختزن الذاكرة المفردات والصور. تَعْلَقُ صورة الكاتب فى الذاكرة. سنوات طفولة يصعب أن ننساها، ولا نحب أن ننساها. رحم الله الوالد ورحم هيكل.

اليوم، أستأذن القارئ الكريم فى الكتابة عن الأستاذ واستميحه عذراً، يقيناً أن سطور خادمكم تتضاءل أمام أقلام أفذاذ عاصروا الأستاذ، تتلمذوا على يديه، تقلبوا فى نعيم نصائحة. قرأوا مقالاته بكراً قبل أن تمسها عيون القراء. قرأوا أفكاره قبل أن تنام على الأوراق. اليوم يتطاول خادمكم للكتابة عن الأستاذ لا من باب كشف المخبوء، ولا إدعاء صلة، ولكن من باب تقدير أولى الفضل. هكذا تربينا.

صعبٌ أن تكون فى مكنون صناعة الخبر وقدس أقداس أسراره

وتحافظ على توازنك. جميلٌ أن تكون تُرجمان السياسة للبسطاء. نجاحٌ أن يقرأك أصحاب الفكر والسياسة ومن يفكون الخط. أن يشعر قارئك أنك الأقرب إليه، يأنسُ إلى كلماتك. عبر كيمياء لا يعرف كنهها إلا الله سبحانه وتعالى تتحول مهارات تقصى الخبر من مصادره، توثيقة صوتاً وصورة، وتدوين تفاصيله الطازجة إلى مقالات وكُتب، تصبح حال نشرها مقصداً للحيارى. حين تقرأ تستشعر نكهةً مختلفة، وفكراً غير مسبوق، يتجسد العمق التاريخى لما نعاصره من اتجاهات فكرية، وعقائدية.

هو عين طائر ترى الجزر المتناثرة أرخبيلاً تأتلف دقائق تفاصيله بخلاف ما تُخبرنا به النظرة السطحية. تنبع الرؤية من بطون قصص التاريخ، تستنطق التضاريس والجغرافيا، تترجم مفردات الاقتصاد والحياة الاجتماعية. تتشكل الأفكار ويغدو الغدُ أمساً، يختلف من يختلف، فيحترم الرأى الآخر. يتطاول عليه من يتطاول، فلا يلتفت ولا يتوقف. يصبح تألقه وقوداً لنار الغيرة والحقد، فيسعى من نجاح إلى آخر.

الأستاذ حالة فريدة تتوهج مع مرور الأيام لا على مستوى الصحافة فقط بل والإدارة أيضا، تولى إدارة الأهرام وهى بعد محدودة التوزيع فصارت الأكبر محلياً وعربياً. انتقلت من مبنى صغير إلى آخر كبير. سُدِدَت الديون وتراكمت الأرباح. دعا النجوم للكتابة فى

الأهرام، فصارت كوكباً. توافدت الكواكب فصار شمساً. تزاحمت الشموس فصار القطب الأعظم. توفيق الحكيم، نجيب محفوظ، لويس عوض، زكى نجيب محمود، وغيرهم. آصبح الأهرام مدرسة يديرها الأستاذ. جميلٌ أن تدير مؤسسة كل من فيها نجوم. فإذا ما غادرتها دام وهجها. أبداً لا يخبو ضوء المصباح.

الأستاذ حاله ندعو الله أن تتكرر فى كل مجال، الاقتصاد، الإدارة، السياسة، الهندسة، الطب، الفنون، القانون. إمام يأتم به التابعين. تستحيل حروفه مسبحةً من نور، وكلماتهِ قنديلا. غداً، أو بعد غد، سوف يولد طفلٌ جديد، يمسك بالصحيفة صباح كل جمعة ليقرأ على مسامع أبيه مقال الأسبوع، ينظر الأب إلى الأفق البعيد فيرى أُستاذٌ جديد يُسرجُ فرسه، يجذب فى قوة راية توشك أن تقع على الأرض، وينطلق صوب قرص الشمس.

جريدة الأهرام المسائى – ٢٦ فبراير ٢٠١٦

جمال بخيت وشعر العامية

من بيرم التونسى مؤسس دفتر العامية المصرية، المتيم بالمحروسة، الممتدة جذوره فى حشاشى طينها، إلى حامد صميدة العامل البسيط والشاعر المبدع، عبوراً بسليمان غريب شاعر الفلاحين، مروراً بعبد الوهاب يحيى صاحب "القراية والكتابة مش دليل المفهومية". وصولاً إلى فؤاد حداد، مسحراتى مصر والعرب الذى أنطق الأرض لغةً عربية. الأبنودى، أسطورة البساطة المُعجزة. أحمد فؤاد نجم، "مصر يامه يا بهية، يا ام طرحة وجلابية".

من كل هؤلاء وغيرهم لَضَمَ الشاعر جمال بخيت مسبحته المُشَكَلَة من حبابى عيون شعر العامية الممزوج بطين المحروسة، المُعطر بماء نيلها، المُجفف على صهد شمسها، المُكتوى بِحُرقةِ عِشقها، المُنَدْىَ بدموع ألمها، لتتلألأ حباتِ المِسبحة على صفحات كتابه "شعر العامية المصرية" ثُريات من نور.

مُرتدياً عباءة الجبرتى، جاب جمال حوارى المحروسة باحثاً عن مجاذيب الشعر العامى، مُدوناً، ومحللاً، ومؤرخاً. فؤاد قاعود المُبدع فى "اتسرسبت أيامى من بين صوابعى". عمنا صلاح جاهين، صاحب "عجبى" التى سقت جذور المصريين فى الأرض الشراقى و"حبيبى سكر مر طعم الهوى". تقاسيم عبد الستار سليم، "القلب راجع جريح،

مضروب برمح الريح، ملفوف بشاش المواجع، والتهمة حب الوطن". أيمن جوده، "أُقر أنا المذكور أعلاه". محمد توفيق، "ياحصان يامتشرنق، فُك الضباب واجرى".

الشعراء الأبناء، محمد أحمد بهجت فى "الجيش العربى فين". أمين فؤاد حداد "عندى وطن حزين، خمسين فى الميه منه عمال وفلاحين". أحمد أمين حداد، "مش حابقى طير، مش حابقى غير، حبة تراب، لكن ح يبنى البيوت". بهاء جاهين، "ياللى هواكِ ريح بحر وحشانى".

عَمل امتد لسنوات، بدأه جمال بخيت بمقالات فى مجلات وجرائد متناسياً أنه يكتب عن منافسين، قدمهم لنا وعَرَفَنَا بهم كبستانى يسقى زهوره قبل أن يشرب، ويُقلمها كى تتكشف ألوانها الزاهية البديعة، ثم يتوارى خلفها تاركاً لزواره تأملها غير منتظر لشكر. شعراء كثيرون غزلوا من قطن الأسى أبيات شعرهم، رسموا بالكلمات وجه الوطن، فتوضأ الوطن بحبر الحروف، وصلى فى محراب شعرهم ركعتى شكر.

كم أنت ولود ومعطاءه أيتها المحروسةُ الجليلة، مازلت قادرة على الإبهار، فى القوة والضعف، فى سراديب الظلام الحالك تمدين يديك لتخرجى من أولادك من يوقد السراج ويتقدم الصفوف. شعراء مروا بدنيانا وما انتبهنا، عبروها دون أن يسمعوا منا كلمة شكر أو تصفيق

حار كذلك الذى تضج منه شاشات الصخب الإعلامى. شعراء رسموا وجوه البسطاء بكلماتهم فصارت قناديلاً تنير سمائك، رسموا بالأبيض والأسود أصحاب الملابس المكرمشة وأصحاب الياقات البيضاء.

ولأن من يكتب عن الآخرين لا يكتب عن نفسه، فقد خلا الكتاب من أعماله التى تعيش بيننا. نُعطر بها أفواهنا من عفن الكلام الرَخِيص. يقول جمال فى قصيدة الواد كِبر صارخاً ضد توريث الحكم، "الواد كبر، تجيبوله جيش هَيْفَوَرُه، تجيبوله عصر من الجهاله ينَوَرُه، تجيبوله سد بطرف إيده يهندسه"، كما جاءت قصيدته سوهارتو تهكما على تولى ديكتاتور إندونيسيا الرئاسة لفترة سابعة "الفترة الجاية لسوهارتو، حتى ولو متوا أو إنهارتوا، الحاكم هو ومين غَيره، مين يملك ف الحكم مهارته، الفترة الجاية لسوهارتو".

مَحبَرتَه جُرحٌ نازف تفوح منه رائحة العنبر والخُزامى، حُروفه مُضَفَرةٌ بخيوط الشمس، قصائده منقوشة على وجه النيل، "المصرى"، "عم بطاطا"، "فلسطينى"، "نعى الجنيه"، نُردد خلفه مبتهلين "ما تغربيناش وتقولى قدر، ما توهيناش فى موانى سفر، ما تضيعيناش ف دموع وفراق، ح تجيبى منين زينا عشاق، ف قلوبنا حصاد، ف عنينا مطر، ما تغربيناش"، فتجيبنا المحروسة "آمين".

جريدة الأهرام المسائى – ٣٠ سبتمبر ٢٠١٦

لغتنا الجميلة

بصوت مبحوح رقيق عذب تتهادى إلى أسماعنا "هنا القاهرة". يتبعه صوت الإذاعية الفريدة "سامية صادق" ببيت للشاعر حافظ إبراهيم "أنا البحر فى أحشائه الدر كامن، فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى"، يعود الصوت العذب هامساً "لغتنا الجميلة لقاءٌ يومى يُعده ويقدمه فاروق شوشة". تلك كانت مقدمة برنامج لا تتجاوز مدته دقائق معدودات، وامتد أثره لسنوات طوال. لا عجب، فتلك طبيعة كل عمل ذو قيمة، يمكث فى الأرض، ويذهب ما عداه أدراج الرياح.

لم يكن برنامج "لُغَتُنا الجميلة" مجرد برنامج إذاعى نتحلق حوله فى المساء، نتعلم منه كيف نقرأ العربية، وكيف نستخرج جواهرها فى صبر ونلضمها فى خيوطٍ من نور. كان –البرنامج– أحد عناصر قوة ناعمة أسرت بها المحروسة الأمة العربية. يصطف مع غيره من برامج أُخرى لمبدعين أصحاب فكر ورسالة؛ نادية صالح و"زيارة لمكتبة فلان"، عمر بطيشة و"شاهد على العصر"، أبلة فضيلة فى "غنوة وحدوتة"، فؤاد المهندس و"كلمتين وبس"، آمال فهمى "ع الناصية"، سلوان محمود فى "قطرات الندى"، سعد الغزاوى وسميرة عبد العزيز "قال الفيلسوف"، صفية المهندس فى "ربات البيوت"، آيات الحمصانى "طريق السلامة". برامج هادفة ذات جاذبية نحتت ملامح المحروسة فى قلوب الناطقين بالعربية، وصاغت فكراً سما بأبنائها. برامج كقطع

السكر تذوب عذوبة فى آذننا، وترتقى بذوقنا العام، وتسمو بلغتنا.

ككل متواضع حيىٌ، تحدث فاروق شوشة فى برامجه "لغتنا الجميلة" و"فى طريق النور" فى الإذاعة، و"أمسية ثقافية" فى التليفزيون، عن شعراء آخرين، قدماء ومعاصرين. بجرأة قدم أشعار بشار بن بُرد، جميل بن مَعْمر، المُنخَّل اليشكُرىّ، عُمر بن أبى ربيعة، قيسُ بن الملوح، أبى فِراس الحمدانى، وغيرهم من أوتاد الشعر العربى. لم يستشعر المستمع غُربة فينفر، بل أنِسَ فى رحاب أشعارهم واستزاد. قطرة قطرة تستطعم الآذان والأفئدة حلاوة وطلاوة شعر نَشُمُ فيه رائحة صحراء مشبوبة بالحب والبطولة والكرم. أيضاً، قدم شوشة ببساطة وتلقائية أشعار الأبنودى، أمل دنقل، عبداللطيف عبدالحليم (أبو همام)، حسن توفيق، ميخائيل نُعَيْمة، إيليا أبو ماضى، نزار قبانى. قدم شاعرنا كل ذلك فى تحليلات عميقة ومبسطة لأطياف مختلفة من المستمعين فساهم مع غيره فى ارتقاء لغة الشارع المصرى.

فى شعره الخاص، صاغ شوشة أشعاره من فرائد ثريات اللغة. غزلها على نول القمر. ضفرها بشعاع شمس صبوح. شَمَمَها عبير هواء المحروسة. كحلها بطينها. رطبها بقطرات من نيلها. ترقرقت على شفتيه قطرات من بلور تتداخل ألوانها حال ملامسة ضوء الشمس.

فى عام ٢٠٠٣ سقطت بغداد فكتب ناعياً نازفاً: "كيف الرقادُ!

وأنتِ الخوفُ والخطرُ. وليلُ بغدادٍ ليلٌ ماله قمرُ!. ها أنتِ فى الأسرِ: جلادٌ ومطرقةٌ. تهوى عليك وذئبٌ بات ينتظرُ". وها نحن اليوم، نرى ما كُتب عن بغداد يليق بكل بلاد العرب. يُهدر الدم العربى فى كل الدنيا، ليصبح كما عبر عنه شاعرنا فى قصيدته "يقول الدم العربى" والتى كتبها منذ أكثر من عشر سنوات عن حالنا اليوم "تساويْتُ والماءَ. أصبحتُ لا طعْمَ، لا لوْنَ، لا رائحة!. أخيراً، يقول الدم العربىُّ: أسيلُ.... فلا يتداعى ورائى النخيلُ، ولا ينبتُ الشجرُ المستحيلُ. أسيلُ.... أروّى الشوقَ العِطاشَ، وأسكبُ ذاكرتى للرمالِ". رحل فاروق شوشة وتركنا نتخبط فى عشوائياتنا، وما آل إليه حالنا من تَرَدٍ ثقافى، وتدنى مستوى الوعى العام، وتدهور العقل الجَمعى. رحل وما زال صدى صوته العذب يتردد فى الأصداء يستشعر غربة لم يعرفها ولم يألفها من قبل.

جريدة الأهرام المسائى – ٢١ أكتوبر ٢٠١٦

سناء البيسى

نشأنا فى بيت اعتدنا أن نفتح فيه عيوننا كل صباح على صوت الإذاعة الساحرة واللقمة المغمسة بجريدة الأهرام. سنوات طويلة أصبح معها الأهرام ركنا أساسياً فى حياتنا البسيطة، إن انشغلنا عنه تفقدناه بعفوية، فلا نستكين إلا وهو بين أيدينا، ارتبطت به كلمة "جورنال"، فإذا لم نقرأه ظل فى عقلنا الباطن أننا لم نقرأ الجريدة بعد، ومن شب على شئ شاب عليه، تعددت الجرائد وامتلأت ساحة الصحافة بأنواع مختلفة القيمة من الصحف المحلية والإقليمية، ومع هذا مازال الأهرام قاسماً مشتركاً بين ما نطلع عليه يومياً من صحف.

فى الزمن البعيد، اعتدنا أن نطالع كل صباح مقالات أعمدة الفكر المصرى والعربى، محمد حسنين هيكل، توفيق الحكيم، أحمد بهاء الدين، نجيب محفوظ، لويس عوض، يوسف إدريس، زكى نجيب محمود، وغيرهم من أهرامات مصر الفكرية وقاماتها المديدة، ارتفعوا شامخين، وارتفعت معهم المحروسة إلى عنان السماء، أقلام نفتقد اليوم سواد حبرها ونستشعر برد فراغها فى زمن فقدت فيه الكثير من الجرائد رسائلها الرئيسية، وفُرِغت من معانيها، فصارت مجرد حشو، قليلا ما تُقرأ، كثيراً ما تستخدم.

سناء البيسى أحد كواكب الصحافة العربية، حظيت بالأهرام، وحظى بها نسيجاً يختلف نقشه ورسمه وطيف ألوانه، ترسم مقالاتها بفرشاة محايدة كما اعتادت رسم لوحاتها، تتداخل الألوان وتتمازج، تفرز مفردات مجتمعنا ببراعة، تنساب الكلمات، تتقاطر التعبيرات وتتزاحم على سن القلم، فى مقالاتها "هو وهى" تواجهنا بنا، تكشفنا وتشخصنا بمشاغلنا، بضحكاتنا ودموعنا، بامنياتنا وانكساراتنا، بأسرارنا وعلانيتنا، بسذاجتنا ومكرنا، نتسائل كيف غطست فى صدورنا وعقولنا وأستخرجت كل هذه التفاصيل، شعور يلمسه كل قارئ لمقالاتها، يظن أنها تكتب له وحده دون غيره، تُسر له بأسراره.

فى وقت تفقد فيه الكثير من المقالات صلاحيتها بعد ساعات من كتابتها، تظل كتابات سناء محتفظة بطزاجتها، وطراوتها، وحضور معانيها، يتساوى فى ذلك قديمها وحديثها فتحولت كلماتها إلى مرايا تعكس لنا تغيرات المجتمع بتفاصيلها الدقيقة وتداعياتها المختلفة.

لسنوات طويلة، تألق أهرام السبت بكتاباتها، بستان ورد تتنوع زهوره ورياحينه، مقالات تفضح عناوينها عشقها للمحروسة، "ترابها زعفران، مصر منورة بأهلها، عظيمة يا مصر"، وغيرها من عشرات المقالات. أيضا، اتسمت كتب سناء بريحة وعبق المحروسة فأصدرت "مصر يا أولاد"، و"سيرةالحبايب" الذى يعرض لسير شخصيات ذات مكانة فى نفوسنا، صَدَرته بقولها، "ليس تأريخًا وإنما تحليقًا مع باقة

جمعتها من ثمار شجرة الإنسانية لأتذوقها على مهل، وأحلق فى أجوائها بالخشوع والمعايشة والصداقة والحب والتأمل والتأثر.. وأنصت لها وأستزيد.. فغرامى وقضيتى وحوار عمرى ونبض قلمى ونهج بحثى هو سيرة الحبايب".

منذ أكتوبر الماضى، انقطعت مقالات سناء فزادت مساحات التصحر وانحسر العمران، جف سرسوب المياه الدافئ شتاءً والبارد صيفاً، عز الماء فى زمن الجفاف، تشققت شفاهنا، وجف لساننا، وصدأت عقولنا بعد أن كنا نقرأها فنجد نهراً واسع المدى يفيض على الضفتين، فيسقى ما حوله، يتجمع ماؤه عند المصب، يمر عبر الأرض الشراقى فتدب الخضرة، يشق طريقه سهلاً سلساً عبر صدوع جبال الصخب والفراغ، تنعكس على صفحته ألوان قوس قزح، وينتشر عبيره فتأنس به الفراشات وتفرح به العصافير ويتعلم منه أمثالى كيف تجرى اللغة فى سلاسة وكيف تنتقل من موضوع لآخر فى ذات المقال فلا يشعر القارئ بغربة ولا نفور، قطعة حلوى تذوب فى أفواهنا فلا يغادر طعمها حلوقنا لتظل سناء قامة وقيمة، حتى وان غابت كتاباتها فأفكارها لا تغيب.

جريدة الأهرام المسائى – ٢٧ يناير ٢٠١٧

سيد حجاب

التقينا بعد طول فراق، بعثرتنا سنوات الشقاء والبحث عن الذات فى بلاد العباد. مع شئ من الترتيب والإصرار على اللقاء، تجمعنا فى مسقط الرأس، جرجرنا أيام الشباب من خلف المشيب، اكتشفنا ضحكة صافية منسية خلف خزان الشجن، زكمت أنوفنا رائحة حليب طازج تتزاحم فقاعاته على وش القِسط، حتة جبنة قديمة نفركها على رغيف شهى خارج لتوه من آتون الفرن، رائحة سمك مشوى مرشوش ملح وليمون، رجعنا حبة عيال تتشاقى زى زمان، تكومنا فى سيارة واحدة اتسعت بمحبة تعاند الأسى المراوغ، بحكم الجيرة والقرب، اتجهنا إلى المطرية دقهلية، تناولنا أشهى أكلة فى حياتنا، غَمسنا كل لقمة بالضحك، طاجن فَرح متبل بالمرح، وفى الخلف تراقبنا بحيرة المنزلة فى صمت. المراكب، مُصْطَفة فى صلاتها بمحاذاة الشط، رائحة ذرة مشوى، بطاطا مشوية، صخب وصياح. على الجانب الآخر صف بيوت ومحلات تضج بالرغبة فى الحياة، هنا ولد عمنا سيد حجاب، وهنا رمى صنارته فاصطاد جِنية الشعر، سقته بيدها من كأس شعر العامية، حفظت ما تبقى فى قمقم ودفنته فى قاع البحيرة حتى لا يصل أحد إلى سر أشعاره.

سيد حجاب، مدبج ديباجة دستور مصر، منور فوانيسها بأشعاره، معطر قنانيها بأبياته، مخضر طريقها بإحساسه، زارع الأمل رغم

الليالى السود، فارد بساط المحبة ضد السلاح والبارود. زارع بذور قوافى شعر العامية فى غيطان المحروسة، حاصد قصائده سنابل تسد جوع المحرومين، مكوم أجرانها على نواصى الحارات سبيل للمحرومين. ناسج أشعاره من صميم حياة الصيادين، من جوف آهات الفلاحين، من لسعة نار ألم يفارقه أمل عشنا نحلم بيه، من ضحكة بهية وشهامة ابن البلد.

سيد حجاب، عاجن شعره من دقيق لهجات أولاد المحروسة، بحرى وقبلى، بندر وريف، سواحل وحضر، مضفرها على ضهر البنات السمر، سلمى وأمل، "بحبّك واعفّر جبينى فى ترابك، واعيش فى رحابِك وأقف جنب بابك، جناينى أروى بالدم وردة شبابك، يا زينة جنينة حياتنا اللعينة، بحبّك يا بنت اللذين.. بحبّك". معشق كلامنا فى أغانيه، لاضم سبحته من معانيه، "يا بوى ع الليل وآخره لما بتصحى جروحى، هم وما جدرش اتاخره، عنى وع تِوِّج روحى". داقق أجراس التنبيه فى عموم الكنائس، رافع أذان الهمة فى كل المساجد، "دنياك سكك حافظ على مسلكك، وامسك فى نفسك لَلَعِل تمسكك، وتقع ف خية تملُكك، تهلكك. أهلك، يا تهلك دا انت بالناس تكون".

سيد حجاب، دمعة هموم نن عين المصريين، بسمة شفاه الفرحانين، آهة وجع الحيرانين. فنان تزجيج القوافى، سَقْا عطاشى الحوارى، ونس الليالى. صنايعى خراطة أبيات حسب الطلب والمعنى.

عاشق المحروسة، مكحل عينيها بطمى النيل، مِحَنى إيديها العاجية، مادد شَعرها ضفيرة بشرايط، ناسج جلابيتها من قطن أشعاره، "تحت نفس الشمس وفوق نفس التراب، كلنا بنجرى ورا نفس السراب، كلنا من أم واحدة.. أب واحد.. دم واحد بس حاسِّين باغتراب".

سيد حجاب، شيخ من مشايخ شعر العامية المصرية، بيرم التونسى، فؤاد حداد، صلاح جاهين، عبد الرحمن الأبنودى، أحمد فؤاد نجم، جمال بخيت، محمد بهجت، على سلامة، وغيرهم كثير، حكوا حدوتة ست الحسن والشاطر حسن، زفوا الأميرة للأمير، رغم الليالى السود والحزن الكبير، شرقت شمس الأمل، هرب الظلام والجهل، اتولدت بلد، "ماتسرسبيش يا سنينا من بين ايدينا، ولا تنتهيش دا احنا يا دوب ابتدينا، واللى له أول بكرة حيبانله آخر، وبكرة تفرج مهما ضاقت علينا". آمين يا رب العالمين.

جريدة الأهرام المسائى – ٣ فبراير ٢٠١٧

كل واحد فينا وطن

تنتظرنى بيروت، وأشتاق إليها. عرفتُها صبية أسيرة شبابها، تحتكر الجمال والشباب، تجرى على شاطئ البحر فيسابقها شعرها البنى المائل للحمرة من أثر الحناء. شهية وطازجة وصالحة للحب فى كل وقت وحين. توقف الزمن على عتباتها وأبى أن يتقدم أو يتأخر، لتحتفظ بيروت بفتنتها، بنضارتها، ببهائها، بأناقتها، بحضورها، بلكنتها، وبحيائها المراوغ.

على مدى ثلاثة أيام عُقد منتدى بيروت للطاقة فى نسخته السابعة مؤكداً تواصل التطوير. عدد المشاركين، تنوع الجنسيات، دمج الطلاب فى الحياة العملية، تنوع الرعاة، شمولية الموضوعات، المعرض المصاحب حتى وإن بدا محدود المساحة. مجهود كبير ومميز يقوم به المركز اللبنانى لحفظ الطاقة، تحت قيادة الصديقين العزيزين بيير الخورى، رئيس المركز، وزياد الزين، النائب، مع نخبة لا يتجاوز عددها العشرين فرد. مجموعة متآلفة من الشباب، تمتلك الفكر، المهنية العالية، التجانس، مهارات التواصل، القدرة على الإقناع، وحضور طاغ.

من ملابس أطفال جوقة القديسة رفقة بقيادة الأخت مارانا سعد إلى أحدث صيحات أزياء تكشف أكثر مما تستر بلغ مؤشر التوهج

مداه. أطياف مختلفة من المهتمين بالطاقة وشئونها. القطاع المصرفى، بدا الأبرز والأكثر حضوراً بقيادة مصرف لبنان المركزى. فى مناخ تنافسى شفاف تبارت البنوك فى تقديم حزم تمويل جاذبة لمشروعات الطاقة المتجددة وكفاءة الطاقة، يساندها ثبات سعر التحويل بين الدولار والليرة لأكثر من عشر سنوات.

فى عام ٢٠١٣ أصدر مصرف لبنان التعميم رقم ٢٣٦ بتبنى "المبادرة الوطنية للطاقة المتجددة وكفاءة الطاقة" متضمناً إتاحة تمويل ميسر لتلك المشروعات اعتماداً على مَحَافِظ ضمانات قروض البنوك التجارية لديه. خلال ثلاث سنوات فقط، ارتفع سقف الاعتمادات المالية من ١٥٠ مليون دولار إلى مليار دولار، لتنتشر نظم الخلايا الشمسية، والسخانات الشمسية للمياه أعلى الأسطح وتنخفض فاتورة كهرباء لا تعرف الاستقرار. الطاقة المتجددة وكفاءة الطاقة توأمان لا ينفصلان وخاصة فى قطاع المبانى، حيث يكفل العمل عليهما معاً تحقيق نجاح ملموس. ما حققته المبادرة من نجاحات يوجه رسالة مباشرة لمخططى نظم الطاقة وواضعى سياساتها بأن وجود حوافز جادة، وتشريعات واضحة، وآليات تمويل مبتكرة كفيل بدفع الأسواق نحو رواج حقيقى وثِقة مُستحقة.

تحظى آلية القياس الصافى، التى تسمح للمستهلكين بوضع نظم خلايا شمسية أعلى الأبنية وتوريد الطاقة المنتجة إلى الشبكة مع

خصمها من استهلاكهم الشهرى، بقبول كبير فى لبنان خاصة مع وضع كود لربط تلك النظم بالشبكة ضماناً لاستقرارها. أيضاً، يسعى لبنان لإقامة مشروعات رياح وخلايا شمسية بقدرات ٢٠٠ ميجاوات و١٢٠ ميجاوات، على التوالى، بحلول عام ٢٠٢٠. وفى مجال إنتاج الكهرباء من النفايات، ينتظر افتتاح أول محطة فى نوفمبر القادم بقدرة ٦ ميجاوات. فى العام الماضى، تعكر المِزاج السياسى والشعبى جراء تباطؤ الحكومة فى حل مشكلة القمامة وتحمل المؤسسات المدنية للمسئولية، الأمر الذى دعا إحدى اللبنانيات للتعقيب فى جلسة حوارية، قائلة "لما الوطن بيغيب، بيصير كل واحد فينا وطن".

أسكَرت السياسة لبنان، عامان والرئيس لم يأت بعد. أكثر من أربعين مرة دُعىَ البرلمان اللبنانى لانتخاب رئيس ولم يوفق. ربما تسعى لبنان لتسجيل رقم قياسى لبلد متماسك من دون رئيس. مخاطرة غير مأمونة، فلا أحد يعرف إلى متى يمكن الصمود. أملاً فى عودة الوعى والتوافق، أطلق تمام سلام، رئيس الوزراء، منذ أيام صيحة "بلدى ينهار"، وما أفاق سياسيو لبنان، فأينما حَلَت تُلقى السياسة بظلالها الرمادية. لَكم أخشى أن يقفز فصيل خارج دائرة المسموح والممكن فيتبعه آخرون، حيث المجهول.

جريدة الأهرام المسائى – ١٤ أكتوبر ٢٠١٦

حفنــة أرز

فرضت إجراءات تعويم الجنيه وخفض دعم المنتجات البترولية نفسها على مناقشات وسجالات أطياف الشعب خلال الأيام الماضية. تفاوتت ردود الفعل. مواطنون بسطاء، دسوا أيديهم فى جيوبهم يتحسسون قروشهم القليلة. وميسورون، يعيدون تقدير مايملكون. وبين هذا وذاك، تتآكل فى صمت طبقة متوسطة تضم عصب الدولة.

يشير موقع الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء إلى أن أكثر من ربع السكان تحت خط الفقر، والخُمس أميون، والثُمن بلا عمل. تجاوز عجز الميزان التجارى الخمسين مليار دولار، بمعنى ارتفاع فاتورة الواردات عن الصادرات بقيمة ٥٣ مليار دولار. اقترب إجمالى الدين من إجمالى الناتج المحلى، وتلتهم فوائد القروض الحكومية والدعم نصف الميزانية. أيضاً، أدى استمرار تقلص عائدات السياحة، وتحويلات العاملين، والاستثمار، لعجز بلغ ٣٠٥ مليار جنيه. بينما فى الجوار عُملة تصارع موتاً سريرياً.

تحت شعار الاستقرار السياسى، رفعت حكومات كثيرة أيديها عن قضية الدعم، فتدنت الخدمات وتقلصت العائدات. مع تضخم الديون فقدت المؤسسات الحكومية دورها وبِيعَ أغلبها بالخسارة. وفى الظل رجل بسيط يستشعر عبء سداد فاتورة الإصلاحات الاقتصادية. آلمه التجاهل، فغاب كمواطن له حقوق وعليه واجبات.

فى السوق، تربط الأسعار بين ثلاثة أطراف. سلطة تشريعية تمثلها الحكومة، ووسيط يجسده تجار الجملة / التجزئة، والمواطن. تشير التجارب السابقة اتباع منهج المفاجأة فى رفع الأسعار ووصف بعض التجار بالمحتكرين، مما أوجد علاقة غير سوية عكرت المزاج العام، وفرضت مناخ يكتنفه الشك والتربص، خاصة إذا تعلق الأمر بسلعة رئيسية، كالسولار، تؤثر على منتجات أخرى.

من جهة أخرى، لا تعرف أدبيات السوق المصرى تغير الأسعار هبوطاً وصعوداً إلا فى بعض المنتجات الزراعية، وخاصة الفواكه والخضروات، عدا ذلك يرتفع السعر ولا يتراجع. تغيير مثل هذه الثقافة ضرورة، خاصة بعد تعويم الجنيه، فأى منتج يدخل فى تكوينه نسبة مستوردة، يتغير سعره النهائى طبقاً لأسعار التحويل صعوداً وهبوطاً.

تخطينا النقطة الحرجة على المنحنى الاقتصادى، إما وقف الإنزلاق والاتجاه لأعلى، وهو أمر ليس بالهين، أو مواصلة الهبوط بفعل القصور الذاتى. تغيير الاتجاه ليس سهلاً، لكنه ممكن شرط الاستحواذ على شارع فقد القدوة، وارتدت تساؤلاته بلا إجابة، ويغالبه الشك فى منهجية ونجاعة الحل.

كلنا مطالب بالتغيير. حكومة ومواطنون. الحكومة توضح لمواطنيها أهدافها وتحدياتها، حتى يستقر فى يقين الأغلبية صواب الإجراءات. المستهلك مواطن صاحب حق وليس زبون عابر. الاهتمام بالبعدين

الاجتماعى والاقتصادى خاصة لأصحاب الجيوب الخاوية. مراجعة الأسعار وإرساء مبدأ تغيرها. المبادرة فى علاج المشاكل، فتكلفة التأخر دائماً أعلى.

فى المقابل، يمنح المواطن الحكومة مزيداً من ثقته ومساندته والتعامل معها كراعى وليس كند. يسد ثغراتها ويشيد بقدراتها. يراجع سلوكيات حولت حياتنا إلى عشوائيات. يغير نمط استهلاك وصل بإنفاقه على الطعام والشراب إلى ٣٥٪ من دخله، وأوقف حصة التعليم عند ٥٪.

فى الستينات بدأت سنغافورة رحلتها صوب التقدم بإجراءات تقشفية قاسية تضمنت تحديد الحصة اليومية للطعام بحفنة أرز لكل مواطن وتقسيم حبة البرتقال الواحدة على ثمانية أفراد. رحلة صعبة تخللتها معارضة وتأييد. صمت وصخب. تقدم وانحسار. نمو وانكماش. رقى وتحضر. رحلة عاشتها أغلبية الشعب إلى جوار قادتها. واجهوا المشاكل يداً بيد، فتقدموا معاً. اليوم لا يتجاوز عدد سكان سنغافورة الخمسة ملايين نسمة ويتخطى إجمالى ناتجها المحلى ما تحققه المحروسة بتسعين مليون. يقينا أننا نستطيع، معاً نضم الكفوف على الكفوف. نؤلف القلوب. نقتسم خبزنا الجاف. نرى وجه المحروسة يتألق فى قلب قرص الشمس بهياً نقياً. حفظ الله الوطن.

جريدة الأهرام المسائى – ١١ نوفمبر٢٠١٦

حكايات يوسف تادرس

تتشابه تفاصيل حياة يوسف تادرس مع عموم المصريين. عبر مراحل العمر، أحلام وأمنيات تؤمن أنك قادر على تحقيقها. واقع مرير ينتف كل يوم ريشة من جناحى أملك وعزيمتك. لا تعبأ ولا تهتم، تخاطب نفسك مؤكداً، "لدى ريش كثير". تتنوع أحلامك بين مسكن، وحب، وعمل، ومال. لا تدرك بعضها، وتُحَصِل قدر يسير من بعضها.

الحب الأول. حلمك ببنت الجيران أو بنت أى حد. حسك بالرجولة وحسها بالأنوثة. إضافتك لتفاصيل تجعل مستقبلك أكثر إبهاراً. حلمك بالسفر معها إلى بلاد لا يعرف لسانها اللغة العربية، أو فى أضيق الأحوال العمل فى بلاد تتوضأ بالنفط. جريك خلف الدروس ونسيان دور المَدرَسة. العودة ذات مساء ماطر وصدمة الزغاريد تنطلق من شرفات منزلها بينما تركب مع خطيبها السيارة الفارهة.

نظرتك لملابس أنيقة خلف الزجاج، ولسيارة تتوهج ألقاً خلف الزجاج. وقوفك محاصراً بين ضيق ذات اليد وحلم مراوغ يأبى الاستئناس. لماذا يختبئ كل ما تتمنى خلف الزجاج. سباقاتك اليومية مع الموظفين والعمال والطلبة خلف سيارات الأجرة. وقوفك محشوراً مدحوراً فى أتوبيس نسى سائقه وركابه الزمن، وصار موعد وصوله

حسب التساهيل، فى شوارع لا تعرف النظام.

تنقب عن طريق مرصوف تحفه الأشجار والزهور، وحيرتك أمام شوارع لا يتوقف فيها الرصف والحفر فتعتقد أن الرصف تمهيد للحفر. شارع مشوه، يذكرك بشوارع حلب إثر قصفها المُلِح بالطائرات، ومواطنون اعتادت عيونهم ونفوسهم أكوام القمامة.

ترسم وجوهاً، أشجاراً، أنهاراً. تجرى أصابعك بالقلم الفحم على الورق الأبيض ببراعة. تتسرب ملامح وروح الأشكال المرسومة إلى الورق. تسمع بعض كلمات الإعجاب. تعرض ما رسمت على الأصدقاء، تتمنى كلمة طيبة. يَمُطون شفاههم. يضيقون عيونهم. يحركون رؤوسهم يميناً ويسارا. تستنتج رأيهم. تخسف بك كلماتهم إلى سابع أرض. تقرر أن تكف عن الرسم. تُمزق لوحاتك وتكسر أقلامك. تشعر أنك أخف وزناً. تمضغ الحسرة وتظن أنك صرت ملاكاً نورانيا.

تبحث عن حقك فيصدمك الخلاف على الوظائف والميراث. العَشم فى أن حقك لن يضيع. إيثار الصمت مع أولاد الأصول وتحاشى الدخول فى نزاع. إظهار الرضا بما فرضوه من قِسمة. تنتظر من يضع يده على كتفك ويقول لك، "طول عمرك عاقل"، لكنهم يمضوا وعيونهم تتحاشى عيناك، فتعرف أنك "طول عمرك غافل".

بحثك عن السند فى زياراتك لأولياء الله، الحسين، السيدة زينب، السيد البدوى، أو حتى مار مينا، أو البابا كيرلس. حاجتك للرعاية. أن تضع نفسك فى حضن أحد منهم. تستشعر معه الأمان، تهرع إليه فى الضيق، تبثه همومك، تستأمنه على أسرارك.

وسط كل هذا، تواجه الواقع بإمكاناتك البسيطة المحدودة، ثقتك فى قدرتك على الفوز فى النهاية، قد تخسر بعض الجولات الأولى، فتُعزى نفسك. ما زال يقينك صلباً لا يلين. لكنك يوماً بعد يوم، وأمام قهر الواقع، تتراجع شيئاً فشيئاً. تجد نفسك فى مكان غير المكان. وزمان غير الزمان. ولغة غير اللغة. تعيش الحلم صحواً ونوما، توقظك أصوات وضحكات خشنة، فتلوذ بوحدتك. تبدو غريباً حتى على نفسك. تزعجك أقل الأصوات، تستشعر أنك تحولت إلى كائن من بللور رقيق، يكسره الماء الساخن والبارد، ولا يتحمل أن يمسه أحد.

يوسف تادرس هو رمز لهؤلاء المهمشين الذين يتمنون ولا يصلون، يطلبون ولا يُسمَعون. وجعهم واحد حتى وإن اختلفوا. يعيشون فى صمت، ويرحلون بلا صوت. حكايات يوسف تادرس دونها عادل عصمت فى رواية حملت ذات الإسم واستحق عنها جائزة نجيب محفوظ ٢٠١٦ والتى تمنحها الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

جريدة الأهرام المسائى – ١٣ يناير ٢٠١٧

حـلٌ آخـر

طلبة تجمعنا مدرسة قديمة البناء، حديثة بمعلميها. معلمون ومعلمات متميزون. بُسطاء فى حياتهم، عُظماء بعلمهم. متواضعةٌ حياتهم، عاليةٌ مكاناتهم. أعدوا للوطن أجيالاً تحمل المسئولية. امتد عطائهم إلى بلدان الوطن العربى، فتحولت مُدنه من رمال صفراء إلى واحات خضراء. جدول متخم بالعلم، ونفوس لا تكِل من العطاء. تاريخ، جغرافيا، قراءة، إملاء، تعبير، رسم، ألعاب، لغة إنجليزية. فى حصة الرياضيات، يتنقل المُدرس البارع بين نظريات إقليديس وفيثاغورث، مُبسطاً ومُعلماً. فى الاختبارات الشهرية، نتلمس خطوات الحل، تنفرج أساريرنا متى نصل إلى المطلوب، إلا زميل لنا، يستعرض براعته فى البحث عن حلول مختلفة. متى نعرض الحل يبادرنا بجملته الشهيره، "حل آخر". نتجادل، يكفينا حل واحدٌ صحيح. يبتسم فى ثقة، ويعقب كفيلسوف "للصوابِ طرقٌ تختلفُ تفاصيلُها وتتفقُ نهاياتُها"، ثم يعرض ما لديه من حلول لذات المسألة. لا أعرف من أين أتى بهذه العبارة البالغةُ الحكمة.

مرت الأيام. شق كل منا طريقه بحثا عن ذاته. نسينا فى زحام الحياة الكثير من الوجوه، لكنه ظل حاضراً متى ذُكرت الرياضيات، ومتى ذكرت الحلول المتعددة. قابلته مؤخراً، فعرفت أنه عمل فى الخليج ما شاء له الله أن يعمل. سنوات طويلة، عاد منها بثروة هائلة، وجلباب

قصير، ولحية عظيمة، ومنهج واحد. لا يرى صواباً غيره. شدتنى الذاكرة إلى أيام الصبا، تسائلت بينى وبين نفسى، أين براعته فى استنتاج حلول أخرى، هذا أوان التطبيق. هذا وقتها. كيف ضاقت الدنيا فى عينيه. كيف نسى براعته فى ايجاد حلول عدة لذات المشكلة. تُرى من قتل لديه مَلَكَة الإبداع. من حرمه نعمة التفكير. كيف لم يعد يرى سوى طريق واحد. كيف تحول من الوسط إلى آخر نقطة فى المنحدر.

مصريون. مسلمون. مسيحيون. سنة. شيعة. صوفى. سلفى. وغيرها. من أين جاء هذا التصنيف المَقيت. كيف نسينا أننا مواطنون وكفى. كيف نسى صاحبنا علاقات الجيرة والصداقة على قارعة التشدد. أى دين، وأى منهج. كيف نسى تلاقى أيدينا فى طبق واحد صغاراً. كيف نسى شربة ماء تقاسمناها من كوب واحد. كيف نسى لهونا بكرة واحدة. كيف نسى عودتنا لبيوتنا البسيطة فى المساء من طريق واحد.

أنظر حولى، فإذا دول عديدة تتنوع تركيبتها السكانية بين أعراق وقوميات متفاوته، ومع هذا تعيش فى سلام. فى سنغافورة يُتَرجم خطاب الرئيس إلى لغات أربع حتى يتمكن عموم الشعب من استيعاب المضمون وفهم الرسالة. إندونيسيا، سبعة عشر ألف جزيرة، لكل منها لغاتها الخاصة. شتات جغرافى ولسان غير موحد. الهند أكثر من

مليار نسمة، وثلاثين لغة، ووحدة تنتظم البلاد. أين نحن من كل هذا. رُقعة مستوية. لغةٌ واحدة. أصلُ واحد. موقع عز تكراره، فهو الموقع الفلتة، كما وَسَمَهُ جمال حمدان. نيلُ يتدفق بالخير، ويأبى أن يشرب أحد منه بعد المحروسة. أرض سأمت انتظار من يصلحها ويزرعها. صحارٍ مُتخَمةٌ بكنوز وثروات. تركنا كل هذا ورحنا نبحث عن تصنيفات وشِيَع أملاً فى التشظى والانقسام.

يقيناً أننا سنعود الأفضل، اتطلع بعيناى نحو باب المدرسة، تمتد يدٌ صغيرة تدق الجرس. يهرع الأولاد والبنات صوب فصول تمتلأ فضاءاتها بالعلم والخير. معلمون. معلمات. يزرعون الأمل ويقتلعون اليأس، ويبدرون العلم. تتشقق الأرض عن نبتات صغيرة تشق طريقها صوب عين الشمس. سنابل سوف تعطى ولا يتوقف عطائها. أيضاً، سيبعث من جديد من يَزرعُ فينا أن للصوابِ طرق تختلف تفاصيلُها وتتفق نهاياتُها، وأن لكل مسألة حلُ آخر، وأن الاختلاف أصل شرط أن يصبح بناءً. حفظ الله الوطن.

جريدة الأهرام المسائى – ٢٣ سبتمبر ٢٠١٦

حِملٌ ثقيل

جمعت جنيهاتها المعدودات قاصدة أحد المحلات لشراء بعض مستلزماتها. بحكم متغيرات السوق والاقتصاد والأسعار، تقع كافة مستلزماتها فى بند الضروريات لا الكماليات. انتهى البائع من تجهيز ما طلبته ووضعه على الميزان، أدخل كود السلعة، فظهر السعر على الشاشة. فى أدب نبهته أن السعر أعلى من المدون على لافتة العرض. نَقَّل عينيه محتاراً بين السعرين، ثم أردف معتذراً، "السعر تغيره الإدارة .. أؤكد لحضرتك أننا منذ الصباح نبيع بالسعر المدون على اللافتة". كظمت السيدة غيظها وانصرفت دون أن تشترى. تابعتُها بعينى فى أسى وقد تهدل كَتِفَاها، وتساءلت قد يكون الفارق بين السعرين، اللافتة والميزان، بسيطاً، إلا أن الهم كبير.

سابقاً، اعتاد المستهلك أن يتوجه لشراء احتياجاته وفى ذهنه سعر متوسط يعبر عن اتجاهات السوق، وكثيراً ما صدقت توقعاته. لفترات طويلة ظلت الأسعار شبه مستقرة، بمعنى تغيرها فى حدود ٥٪ فى أغلب الأحوال. بشكل غير مباشر، انعكس ذلك فى ثقة المواطن / المستهلك واطمئنانه إلى حرفية إدارة الملف الاقتصادى. من جهة أخرى، أعطى متوسط السعر للمستوردين والتجار ميزة إجراء تعاقدات طويلة المدى، سواء بيعاً أو شراءً، مما رفع من مستوى استقرار الأسواق داخلياً، وعزز مكانة الاقتصاد الوطنى خارجياً.

خلال الفترات السابقة، احتفظ السوق بمنتجات فى متناول رجل الشارع البسيط، خيمة أمان تقيه عواقب ارتفاع أسعار بعض المنتجات. مؤخراً، ارتفعت أسعار السلع ووصلت إلى حد الأزمة فى منتجات رئيسية كالسكر، والأرز، والزيت. قد تتوافر السلع، إلا أن حرارة أسعارها فى ارتفاع دائم. تحت وطأة محدودية الدخل، خفَضَ الكثيرين من مستويات استهلاكهم، وإن لم يؤثر ذلك فى ميزان السوق، فقد دفع تهاوى قيمة الجنيه بالأسعار إلى مستويات أعلى.

خلال عام واحد انخفضت قيمة الجنيه أمام الدولار من ٧,٧ جنيه/ دولار إلى حوالى ١٨ جنيه/دولار. أثرت سرعة التداعيات على قرارات التسعير، لم يردعها زيادة احتياطى البنك المركزى إلى حوالى ٢٥ مليار دولار، ولا أثر الاحتياطى بدوره على سعر الجنيه أمام الدولار. ربما كان مرد ذلك، أن ما أضيف من دولارات إلى الاحتياطى مصدره قروض لا فوائض، من ثم يتحتم دخولها فى عمليات استثمار تكفل سداد ما عليها من التزامات.

يشير موقع الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء إلى ارتفاع مستوى التضخم خلال هذا العام إلى أكثر من ٢٢٪ فى المأكولات والمشروبات، وتخطى المتوسط العام ٢٠٪، الأمر الذى يُقلق المواطن البسيط المشغول بثمن طعامه وعلاجه. ضخ المزيد من الجنيهات فى جيوب المواطنين لن يحل المشكلة ما دامت الأسعار تقفز للأمام.

من المنتظر أن يكون عام ٢٠١٧ عاماً صعباً، حيث تُختبر سياسات الإصلاح ومدى صلابة المواطن على تحمل تبعاتها. سياسات تشمل القدرة على مواجهة تحديات وتبعات قرار التعويم، وتطبيق خطة رفع الدعم التدريجى، وارتفاع أسعار الخدمات والوقود، وتطبيق ضريبة القيمة المضافة، والضغوط التضخمية، وارتفاع تكلفة العمالة. أيضاً، يعتبر عام اختبار لمدى قدرة الحكومة على جذب الاستثمارات سواء المباشرة أو غير المباشرة ورفع مستوى الصادرات، وتنمية الاستثمارات المحلية بعد ارتفاع نسبة الفائدة على الإيداعات مما يُغرى أصحاب الأموال بإدخارها.

على الضفة الأخرى، يحتاج رجل الشارع إلى إجراءات حقيقية تُشعره بالرعاية المعيشية والصحية. الجهد المبذول من الحكومة كبير إلا أنه يحتاج مزيد من التنظيم والتطوير المؤسساتى والتشريعى، مع سرعة تعافى الاقتصاد واستعادة كامل ثقة المواطنين مع تبنى برامج تُعيد إحياء دور المشروعات الصغيرة والمتوسطة مما يخفف من حمل ثقيل يئن تحته المواطن. حفظ الله الوطن.

جريدة الأهرام المسائى – ٢٠ يناير ٢٠١٧

الإدارة وأشياء أخرى

حفنةٌ من رمل على خد كوكب الأرض، هكذا بَدت دبى لآلاف السنين. لا يتخطى تاريخ إنشائها مائتى عام، فى حين يرجع تاريخ تَحَولِها إلى قِبلة للسفن والتجارة إلى ستين عام مضت. منذ ذلك التاريخ، وكل عام يمر يُضيف إلى رصيدِ تقدمها أعواماً تحتاجها دولٌ أخرى لتحقيق ذات الإنجازات. التطور لا يأتى صُدفة. رؤية ثاقبة، فرز لنقاط القوة والضعف، قوانين تتطور ما طلعت شمس وغاب قمر. اقتصاد متنوع لايعترف بأحادية النفط. تعليم متطور. بنية تحتية تسابق الزمن. أهداف تُقاس، تُقيم، تُحدَثْ.

بيئة منفتحة تقبل الآخر ما ساهم فى البناء والتطوير. أجناس شتى، فرقاء، جمعتهم مدينة تسافر فى الزمن. من الحاضر الماضى إلى المستقبل الحاضر. يُنظمهم قانون واحد. اليقين أنهم متساوون فى الحقوق متفاوتون فى المسئوليات رسخ فيهم طُمأنينة يُظلها القانون. لا تلفيق، لا فهلوة، لا تدليس. فى حديث عابر مع سائق تاكسى، قال "أنا لا أخشى ضياع حقى فى الإمارات، كُلنا أمام القانون سواء، خِلاف ما أعانيه فى وطنى من معاملة سيئة غير مبررة، وما أدفعه من رِشىً لقاء إنهاء أوراقى بسلام".

منذ أيام تداولت وكالات الأنباء زيارات الشيخ محمد بن راشد آل

مكتوم لبعض مكاتب حكومية تتعامل مع الجُمهور بشكل مباشر. الجُمهور هنا ليس مواطنى الدولة الإماراتيون فقط، بل ورعايا الدول الأخرى التى وفدوها سواء للعمل، أو أى غرض آخر. أسفرت الزيارة عن إحالة تسع من كبار الموظفين إلى التقاعد جراء عدم تواجدهم بمكاتب عملهم وعدم وجود من يحل محلهم، ومن ثم تأخر الأعمال وتراجع معدلات الإنجاز. الأمر الذى أدى لإعفاء موظفين لم يراعوا المسئولية وإن كانوا ذوى مكانة، وتعيين شباب ذوى علم وطموح.

ما فعله الشيخ محمد عُدَ رسالة غير مباشرة إلى العاملين بالمواقع الخدمية الأخرى والتى قد تكون هدفاً لإحدى زياراته القادمة، الأمر الذى ينعكس إيجابياً على أدائهم وأداءِ مؤسساتهم. بالنسبة لمؤسسات الخدمات لا فرق بين مواطن وزائر، لا تمييز لعرق، لدين، لعمل، لمستوى اجتماعى. الكل يحظى بذات المستوى، سواء كانت الخدمة مجانية وارتأت الدولة سدادها عن المستفيد لاعتبارات معينة، أى أنها فى ميزانية الدولة خدمة ذات تكلفة، أو بمقابل يدفعه المستفيد.

سريعاً، فرضت المقارنات نفسها، بداية من مفهوم الزيارة المفاجئة التى تُبلغ بها المؤسسات المصرية مسبقاً، فنكتشف أن كل شئ تمام، حضور، أداء، نظام، نظافة، خُضره، وغيرها من موجبات الزيارة. فى كثير من مؤسساتنا، تتحرك المستندات والإجراءات عبر حلقات عنقودية مميتة. تصنيف تراتبى يقتضى انقضاء عدة أيام حتى تصل

الورقة من المسئول الأول إلى الموظف المختص غير المُلمِ بنطاق عمله وحدودِ وظيفته. عدم وجود إجراءات قياسية مُحددة وواضحة ومُعلنة لمتطلبات كل خدمة يحتاجها العميل. غياب المنظومة الإليكترونية الشاملة الرابطة والجامعة لمفاصل العمل فى كل مؤسسة. الحاجة لتطبيق مؤشرات أداء لمستويات الإنجاز، وغيرها من أفكار يُتقنها أهل الاختصاص.

مؤسسات حكومية تعهد إلى موظفيها إدارة أصول بمليارات الجنيهات بأدوات وقوانين صدرت فى زمن غير الزمن، وبيئة جد مختلفة. لنتسائل، كيف نحلم بالتطوير ونعادى التغيير ونرفض الابتكار، ونعزز من قيمة التخلف. كيف نستخدم آليات قديمة لمعالجة مشاكل حديثة. صار تطور آليات العمل فريضة أمام مشاكل ومعطيات تتغير مع دورة الزمن. أيضاً، يحتاج صاحب القرار لسند يحميه ويحفزه على تطوير الأداء ويجنبه المسائلة إن فكر، والاعتقال إن صَرَحَ، والنفى إن نفذ، ليصبح مثلاً وعبرة لأولئك العابثين الذين يفكرون فى التطوير !!.

جريدة الأهرام المسائى – ١٦ سبتمبر ٢٠١٦

طفولة إدارية

كعامل بسيط التحق فريدريك تايلور بأحد المصانع فى فيلادلفيا، وفى نفس الوقت واصل دراسته للحصول على الماجستير، ليترقى فى أقل من عشر سنوات إلى كبير مهندسين. انشغل فريدريك بسبل رفع انتاجية وكفاءة المصنع، فعلى الرغم من النهضة الصناعية الكبرى التى شهدتها أوربا وأمريكا فى ذلك الوقت، إلا أن علم الإدارة لم يكن قد تطور بالقدر المطلوب. بعد مراحل متعددة من الدراسة والمشاهدة والتجربة، صاغ أفكاره فى كتاب بعنوان "مبادئ الإدارة العلمية" جعل محوره تحسين كفاءة الإنتاج اعتماداً على التحليل العلمى للأداء، وتخير العاملين الأكفاء مع تحفيزهم معنوياً ومادياً، وتحديد مسئوليات كل عامل طبقاً لعناصر واضحة يسهل متابعتها وقياسها كمياً. ما وضع فريدريك بذوره منذ مائة عام صار اليوم أشجاراً وارفة وعلوم تندرج تحتها تخصصات متنوعة تساهم فى تطوير المؤسسات وصناعة اقتصاد الدول، فالإدارة علم ينمو ولا يتوقف.

على اختلاف مستوياتها التنموية، تحتاج الدول إلى برامج جادة لترشيد نفقاتها عبر مؤسساتها الوطنية. عادة تصدر الحكومة توجيهات عامة، لتعيد كل مؤسسة النظر فى اختصاصاتها وتقرير ما تراه مناسباً من إجراءات. عملياً، تتجلى براعة الإدارة فى الموائمة بين ترشيد النفقات وزيادة معدلات النمو. فى الظاهر، تبدو العبارة غير

متسقة، إلا أن علم الإدارة يتعامل فى الأساس مع التحديات مستهدفاً خفض التكلفة وزيادة العائدات.

فى علم الإدارة الذكية، قد تحتاج إلى ضخ المزيد من المصروفات حتى تستطيع خفض النفقات. فى عام ٢٠١٤ انخفضت مبيعات شركة سامسونج إلى نحو عشرة بالمائة، فما كان من الشركة إلا أن رفعت الاعتمادات المخصصة للبحث والتطوير بنسبة تصل إلى ثمانية بالمائة مستهدفة تقديم منتجات أكثر تميزاً، ليصل متوسط الإنفاق الشهرى على أعمال البحث والتطوير إلى حوالى مليار دولار، لتتخطى قيمتها الإجمالية الأربعة عشر مليار دولار فى عام ٢٠١٥.

على العكس من ذلك، فى مؤسسات تعيش طفولة إدارية، تتركز إجراءات الترشيد على خفض مستلزمات التشغيل والإنتاج دون النظر إلى تأثير ذلك على كفاءة العمل. بمعنى آخر، تطبق الإجراءات من جانب واحد مع تجاهل تداعياتها على المنظومة الشاملة للعمل، وما ترتب عليها من تدنى معدلات الإنتاج، وتراجع مستوى التنافسية، ناهيك عن تعكر المزاج العام للعاملين، وفقدان الثقة فى إدارة لا تمتلك نظرة شاملة.

فى المؤسسات الناضجة إدارياً، يبدأ نطاق الترشيد الشامل من رفع كفاءة العاملين، وبالتالى زيادة معدلات الإنتاجية. تقليل فترات الأعطال التى تتعرض لها الماكينات والمعدات، وخفض استهلاكات

الطاقة ترشيد للنفقات. استبدال معدات قديمة بأخرى حديثة ذات كفاءة أعلى، ترشيد للنفقات. فتح أسواق جديدة وتقديم منتجات تحظى بقبول العملاء، أوجه أخرى للترشيد. خفض مدة الاجتماعات، وتقليص الدورة المستندية، وميكنة الإجراءات، واعتماد أسلوب الشباك الواحد فى المؤسسات الخدمية، بدلا من دوران العميل على عشرات المكاتب لاستيفاء توقيعات عفا عليها الزمن، كما أن تواجد الموظف فى محل عمله، وتناسى لعبة القط والفأر بينه وبين والعميل، وتحديد شخص مسئول عن كل مشروع، ترشيد للنفقات، وصولاً إلى رفع مستوى الولاء للمؤسسة والرغبة فى العطاء.

على مستوى الدولة، يؤدى تطوير تشريعات الاستثمار وابتكار آليات تمويل تتسم بالديناميكية والتوافق مع أنماط الأسواق، وتطبيق مبادئ الحوكمة، ونزاهة القضاء، وتطوير التعليم، والشفافية إلى ترشيد النفقات وتقدم الدولة. طبقاً لما كتبه فريدريك منذ أكثر من مائة عام، تتنوع أوجه الترشيد وتتفاوت بحسب كل حالة، لتصبح صياغة خطط عمل وآليات متابعة وتطوير مرنة وفعالة السر وراء قصص نجاح تنتشر فى كل الدنيا.

جريدة الأهرام المسائى – ٤ نوفمبر ٢٠١٦

نيوزيلندا اليوم ... مصر غداً

يتحلق العالم حالياً حول مباريات كأس العالم. دول الشمال تنافس دول الجنوب. ففى كرة القدم يختلف التصنيف. سحقت كوت ديفوار النامية اليابان المتقدمة. لم تفلح التكنولوجيا اليابانية فى تعطيل مفاصل كوت ديفوار. على صعيد آخر، تخوض الحكومات كأس عالم من نوع آخر، ففى الشتاء من كل عام يعقد المنتدى الاقتصادى العالمى بمدينة دافوس بسويسرا. تترقب الدول المنتدى لإبراز إيجابياتها ووضع مساحيق التجميل على السلبيات بنسب تتفاوت من دولة لأخرى.

يعد تقرير التنافسية العالمية أحد مخرجات المنتدى. يُعرض ويُناقش ويُنقد لتتعرف الدول على آليات تحسين خدماتها. تتصدر سويسرا سلم التنافسية العالمية وتزاحمها أمريكا، فى حين تأتى سنغافورة والسويد والدنمرك فى المراكز الثلاث التالية. سبع درجات تتنافس عليها مائة وثلاثة وثلاثون دولة، حصدت منها سويسرا أقل من ست درجات بما يوحى أنها مطالبة ببذل الكثير من الجهد سواء لتحافظ على المركز الأول، أو لتحسن أدائها. إثنتى عشرة معيار تشمل كافة أنشطة الدولة تصنف إلى ثلاثة أقسام تضم المتطلبات الأساسية، وعوامل تعزيز الكفاءة، وأخيراً الابتكار والتطوير. المعايير قاسية، محايدة، فبفارق واحد من مائة من الدرجة حُبست أمريكا فى مقصورة

الوصيف، فى حين كان فرق ثلاثة أعشار الدرجة كفيلا بوضع هولندا فى المركز العاشر. الإمارات فى المركز الثالث والعشرين، وهو أحسن ترتيب حصلت عليه دولة عربية. فى عام واحد قفزت الإمارات ثمان مراكز للأمام.

فى بادرة حسنة، دعا الدكتور أشرف العربى – وزير التخطيط – الخبراء الوطنيين لوضع استراتيجية مصر حتى عام ٢٠٥٠ فى كافة المجالات، استناداً إلى ضرورة وجود أهداف محددة. متفق عليها. لا تتغير بتغير الأفراد. أهداف تضع مصر ضمن أكبر ٢٠ دولة على مستويى الاقتصاد والتنافسية. شَرُفْت كونى بين كوكبة من أعلام مصر فى شتى المجالات. الرسالة أن مصر ما زالت بخير ما دام هناك من يبذلون العمل الخالص دون مقابل.

حالياً تحتل مصر المركز السبعين على مقياس التنافسية وتنظر فى الغد إلى مقعد نيوزلندا، أى العشرين. يبلغ تعداد نيوزلندا ٥٪ من سكان مصر، فى حين يصل إجمالى دخلها القومى إلى ٨٠٪ من نظيره فى مصر والبالغ ١٦٢ مليار دولار. ارتفاع متوسط مشاركة الفرد المصرى فى إجمالى الناتج المحلى بحلول منتصف القرن إلى مستوى نظيره النيوزلندى حالياً (٣٠ ألف دولار) يحقق لمصر ٤ تريليون دولار، أى دخل الصين تقريباً.

أوضحت دراسة للبنك الدولى أن السر خلف نجاح اقتصاديات

الصين وكوريا الجنوبية والهند يكمن فى التركيز على الصناعات المتقدمة تكنولوجياً. خلال عقد من الزمان رفعت كوريا استثماراتها فى التكنولوجيا المتقدمة من ١٨٪ إلى ٤٢٪، بينما قفزت فى الصين إلى ٣٠٪ صعوداً من ٢٪. إننا فى حاجة إلى مثل هذه التوجهات حتى تستطيع مصر إحداث طفرة اقتصادية تمكنها من تبوء مكانة عالمية متميزة يساعدها فى ذلك "الموقع الفلتة" على حد تعبير الدكتور جمال حمدان، وفضاءات جغرافية تتسع حولها، وموارد طبيعية وبشرية تنتظر تعظيم قيمتها.

على التوازى، تعكس مؤشرات تنافسية معايير المتطلبات الأساسية الحاجة إلى استثمارات كبيرة وجهود هائلة لتطوير شبكات الطرق، والموانئ، والسكك الحديدية، وشبكات الاتصالات اتساقاً مع تطوير أداء المؤسسات الحكومية لتتخفف من بيروقراطية اتخاذ القرار، وتطوير القوانين، ومكافحة الفساد، وتعظيم القيم الأخلاقية، وإعادة الانضباط والأمان إلى الشارع. يأتى هذا فى وقت تحاط فيه مصر بحزام أزمات. دول الجوار يغشاها انفلات وتصدع تؤثر هزاته على الاقتصاد الوطنى الذى لا شك تأثر – وما زال – بثلاث سنوات من عدم الاستقرار، ليصبح إقامة اقتصاد قادر على امتصاص الصدمات أمراً لا مفر منه.

ما أصعب فترات التحول. تبدو العلاقة بين معايير التنافسية

والتنمية المستدامة عصية على التوافق المرتبط بالنمو السريع خاصة فى البلدان المهمومة بالانتقال من فئة إلى أخرى، والخروج من دائرة الدول النامية إلى الناهضة. تغمض التنافسية عينيها عن أسئلة من قبيل، أى نوع من الوقود تستخدم؟، هل انخفضت قيمة الموئل الطبيعى ممثلا فى البيئة؟ كيف تتطور فرص العمل؟. تجارب الدول المتقدمة فى فترات النمو السريع توحى أنها لم تقرأ سطراً واحداً عن الاستدامة. بروتوكول كيوتو يشهد على ذلك. التزاماتها البيئية حالياً تعبر عن تاريخ بيئى أسود.

نحن فى مرحلة تحول فى كافة المجالات، فى السياسة والزراعة والطاقة والصحة والرعاية الاجتماعية وغيرها. لا مفر من وضع استراتيجية تحدد فيها الأهداف. وخطة عمل تتضمن التفاصيل الفرعية لآليات بلوغ الغايات. فى الإمارات تتصدر المؤسسات لوحات تعرض استراتيجية الدولة فى مجالات عملها، فى حين يحدد إطار بلون مختلف دور المؤسسة فى تحقيق هذه الاستراتيجية. الرسالة الكل يعرف دوره. وكيف يؤديه. الاستفادة من الزخم التالى لانتخابات الرئاسة تبدو فرصة صعبة التكرار. لا مصالح شخصية. مصلحة الوطن فوق الجميع. سننظر جميعاً صوب الغد. ستصبح مصر ضمن العشرين الأفضل إن شاء الله.

جريدة الأهرام المسائى – ٢١ يونيو ٢٠١٤

مصر وموزمبيق ... شراكات استراتيجية محتملة

لا تكاد تذكر موزمبيق ومصر حتى يتبادر إلى الذهن مباريات كرة القدم سواء فى البطولات المختلفة، يفوز فيها من يفوز فترسخ فى الأذهان صورة الأهداف ودموع الفوز والخسارة !!. لا تتجاوز مساحة موزمبيق ١٠٪ مساحة مصر، يحميها المحيط الهندى شرقاً بساحل يمتد لأكثر من ألفى كيلومتر، بخلاف باقى الحدود المشتركة مع سبع دول. يعتمد اقتصادها على الزراعة بشكل رئيسى إلى جانب بعض الصناعات البسيطة. تتصدر إسبانيا وبلجيكا والبرتغال والبرازيل قائمة الاستثمارات بموزمبيق، فى ظل غياب إفريقى وعربى عن كنز إفريقى يتشوق للاستثمار وتحقيق نقلة نوعية.

منذ نحو أربعين عاماً كانت مصر من أوائل الدول التى اعترفت بموزمبيق جمهورية مستقلة، جاء ذلك تتويجاً لاحتضانها حركات التحرير الموزمبيقية فى منتصف الستينات وحتى استقلالها من البرتغال عام ١٩٧٥. والآن توقف التعاون عند مستوى لا يعبر عن طموح الدولتين خاصة فى ظل الطفرة النفطية التى تشهدها موزمبيق.

كان عام ٢٠١٣ قد شهد عدة اكتشافات إفريقية كبرى للغاز الطبيعى، تصدرتها موزمبيق وشملت القائمة أنجولا، ونيجيريا، والكونغو برازافيل، وتنزانيا، ومصر بإجمالى احتياطيات ٤,١٥ مليار

برميل مكافئ نفط. بحسب مجلة فوربس تبلغ احتياطيات بئرى آجولا وكورال البحريين فى موزمبيق بنحو ١,٤ مليار برميل مكافئ نفط لتتصدر قائمة الاستكشافات العالمية.

كأى دولة تصبح بين ليلة وضحاها غنية بالغاز والنفط، تتسابق الدول لكسب ودها، وللاستثمار فى الأرض البكر، لتكتسب يوماً بعد يوم ثقلاً سياسياً وبعداً تأثيرياً، ومن يضع قدمه أولاً يحقق السبق. فى مارس ٢٠١١ اصطحب رئيس الوزراء اليابانى – آنزو آبى – وفداً عالى المستوى لزيارة موزمبيق شملت مباحثاته شراء حصة من الغاز يجابه بها عجز طاقة بلغ ٢٥٪ إثر توقف المفاعلات الخمسين بعد كارثة فوكوشيما. اليابان ثالث اقتصاد عالمى وأيضا أكبر مستورد للغاز المسال، مازالت ترى أن الطاقة النووية مسارها الحتمى وإن استدعى الأمر وقتاً لمراجعة وتدقيق إجراءات الأمان النووى وذلك بحسب تصريحات رئيس اتحاد شركات الطاقة الكهربائية فى اليابان فى مؤتمر الطاقة العالمى ٢٠١٣ بكوريا الجنوبية.

طبقاً لإحصاءات بريتش بتروليوم فى يونيو ٢٠١٣، تبلغ احتياطيات الغاز بموزمبيق نحو ٢٠٠ تريليون قدم مكعب، لتحتل المرتبة السابعة عالمياً متفوقة على فنزويلا المتأججة سياسياً، ونيجيريا المكتوية بجماعة بوكو حرام، والعراق التى مزقتها الطائفية، لتصبح فرصتها فى إقامة صناعة غاز أكثر جاذبية، يعززها إنشاء أربع

محطات لتسييل الغاز بسعة عشرين مليون طن مترى سنوياً تجعل منها ثانى أكبر مصدر للغاز المسال بعد بئر "راس لفان" بقطر. من هنا ترى الحكومة سهولة تدبير احتياجاتها من رؤوس الأموال من مصادر عالمية، إلا أنها يجب أن تتوخى الحذر خشية اختلال توازن الاقتصاد الوطنى.

كانت موزمبيق قد بدأت تصدير الغاز عبر خطوط أنابيب إلى جنوب إفريقيا من بئرى باندى / تيمين الواقعين جنوب البلاد. وعلى الرغم من انخفاض إنتاج كلا الحقلين مقارنة بالاستكشافات الحديثة إلا أنه شجع الشركات العالمية على مواصلة التنقيب فى مناطق مختلفة أسفرت عن اكتشاف احتياطيات هائلة شمال البلاد، وتحديداً فى حوض روفيما البحرى القريب من حدودها مع تنزانيا وفى مناطق تنقيب لشركتى الطاقة آناداركو الأمريكية، وإينى الإيطالية.

ينتظر استكشافات موزمبيق سبل عدة أولاها تدبير الطاقة اللازمة لتنمية البلاد ومساعدتها فى إحداث نقلة نوعية من حيث طبيعة الخدمات، والثانى تصدير الغاز المسال إلى الأسواق الآسيوية كاليابان والهند وكوريا الجنوبية عبر المحيط الهندى، أو بيعه فى الأسواق الأوربية عبر (مصر) خاصة مع تزايد رغبة دول الاتحاد فى التحرر من الغاز الروسى خاصة بعد صفقة الغاز بين الصين وشركة غازبروم الروسية بقيمة ٤٠٠ مليار دولار لمدة ٣٠ عام تبدأ من ٢٠١٨.

وتستدعى فكرة نقل غاز موزمبيق إلى أوربا عبر مصر خط غاز نابوكو الذى يتخذ من تركيا معبراً بين غاز الشرق الأوسط وبحر قزوين إلى الأسواق الأوربية والبالغ طوله ٣٣٠٠ كيلومتر، بطاقة سنوية تصل إلى عشرة مليارات متر مكعب تزيد فيما بعد. بمعنى تبنى مصر فكرة إنشاء خط أنابيب يمتد من موزمبيق إلى ساحل البحر المتوسط ليتشابه مع خط أنابيب "سوميد" الناقل لنفط الخليج العربى إلى ساحل البحر المتوسط. مع مراعاة حاجة الخط للمرور عبر أربع دول "تنزانيا، وكينيا، وجنوب السودان، والسودان" قبل وصوله إلى مصر، ويعزز ذلك رغبة كينيا شراء الغاز القطرى الذى سيكون أعلى سعراً جراء تكاليف نقله مقارنة بغاز موزمبيق. أيضاً يعتبر الخط منفذاً لبيع غاز تنزانيا التى تتلقى عروضاً للتنقيب من دول عدة منها إسرائيل. يحمل إنشاء هذا الخط أبعاداً عدة أولاها تعزيز مكانة مصر فى منطقة جنوب الصحراء، وبناء مصالح مشتركة ترتبط بالغاز نقلاً وإنتاجاً واستهلاكاً، وتوفير جانب من احتياجات مصر من الغاز، ناهيك عن تقليص دور إسرائيل فى العمق الاستراتيجى لمصر. يضاف إلى ذلك بديل نقل الغاز الموزمبيقى إلى الأسواق الأوربية عبر قناة السويس بعد تسييله.

إن تعزيز الشراكة مع موزمبيق فى مجال الغاز يجب أن يبنى على "المكاسب المشتركة" التى تبنى معها ثقة الأطراف فى التعاون وتحقيق

مصالح مشتركة لكلا الأطراف. ويمكن مصر تقديم الكثير لموزمبيق فى إعداد البنية التحتية لتسييل الغاز ونقله، وأيضا فى الطاقة المائية التى تمتلك موزمبيق منها سدى كاريبا وكاهورا باسا على نهر الزامبيزى اللذان يوفران الطاقة لها وزامبيا وجنوب أفريقيا، ليجتمع الكل تحت مظلة شراكات استراتيجية متوازنة وناجحة.

جريدة الأهرام المسائى – ٥ يونيو ٢٠١٤

بحثاً عن مقهى

لكل بلد نكهة خاصة يتفرد بها. مزيجاً فريداً من ثقافة، لغة، عادات، تقاليد، أديان، مذاهب، أعراق، تعليم، حرف، وغيرها. فى الوطن العربى، لا تكاد تخلو مدينة من حى أو شارع يحمل دون غيره بصمتها القديمة وسرها الدفين. ساحة الفنا فى مراكش. البلدة القديمة فى الرباط. سوق واقف فى الدوحة والذى ينطقون قافه جيما (سوج واجف). سوق مطرح فى مسقط. سوق باب البحرين فى المنامة. خان الخليلى وشارع المُعز فى القاهرة. السوق القديم فى جبيل. سوق الحميدية فى دمشق وقت أن كان هناك بلد يُدعى سوريا. تعرض هذه الأسواق وغيرها التراث الشعبى لكل بلد راسمة ملامحها وسماتها الخاصة، وإن ظلت المقاهى العامل المشترك فيما بينها.

عربياً، حظيت مقاهى القاهرة بمكانة خاصة. ففى الوقت الذى لم يكن فيه سوى المقهى مكاناً للقاء، اتخذ الكثير من أعلام ومفكرى وثوار المحروسة تلك المقاه مركزاً ومنطلقا. فى كتابه الماتع "أيام لها تاريخ" يصف الأستاذ أحمد بهاء الدين (رحمه الله) عبد الله النديم، خطيب الثورة العرابية، بأنه تتلمذ على يد الشيخ جمال الدين الأفغانى وتلقى منه دروس الثورة فى مقهى متاتيا، وقت أن كان الشيخ "يوزع السعوط (النشوق) بيمناه والثورة بيسراه".

ومن الثورة إلى الأدب، تعددت حلقات المفكرين والأدباء وانتشرت فى مقاهى حى الحسين ووسط البلد، ولعل أشهرها مقهى الفيشاوى الذى يعود لأكثر من مائتى عام. ليصبح مزاراً سياحياً للأجانب قبل العرب. وعلى الرغم من يد التطوير التى لمست المقهى، إلا أن رائحة الشاى المخلوط بالنعناع الطازج ما زالت تصبغ أجواءه برائحة زكية.

أيضاً، مقهى زهرة البستان بالقرب من شارع طلعت حرب والذى يعد حتى الآن ملتقى للعديد من الأدباء والمفكرين والفنانين التشكيليين. كما، شهد قبو مقهى ريش –القريب منه والمغلق حالياً– طباعة منشورات ثورة ١٩١٩ على الرغم من سمته الأرستقراطى آنذاك. مقاه عديدة احتضنت أدباء العالم العربى والمستشرقين اللذين قصدوا مصر للتتلمذ على يد أدبائها ومفكريها وقت كانت الثقافة المصرية قوة ناعمة تساند الدولة وتمد نفوذها فى أرجاء المعمورة. قفاز حريرى قوى امتد من الأدب نثراً وشعرا، إلى الفن غناءً وتمثيلا، وإلى التعليم تربيةً وتدريسا.

فى زيارة لعُمان، التقيت أحد كبار مسئولى وزارة البحث العلمى الذى عدد لى فضائل المدرسين المصريين اللذين هبطوا عُمان أوائل السبعينات، وكيف تحدوا ضعف الإمكانات آنذاك وواصلوا رسالتهم التعليمية ليصبح أطفال الأمس قادة اليوم. لم ينس صاحبنا مدرس اللغة العربية، ولكنته الصعيدية اللطيفة، وأسلوبه السهل، مؤكداً أنه لو

يعلم عنوانه لزاره وقَبَلَ يديه. قوة ناعمة افتقدناها أمام طغيان ثقافة الفهلوة، والسمسرة، والتهريب، والتغريب.

وامتداداً للتغريب، صُبغت مقاه المحروسة بطابع غربى، بداية من الاسم وانتهاءً بالمشروبات والمأكولات وطرق التقديم. غابت ملامحنا فى تلافيف الحروف واللكنات الأجنبية المشوهة. زارنى صديق عربى كريم وسألنى بعد ماراثون سعى بين المكتبات أن نذهب إلى أحد المقاه للاستراحة وتجديد النشاط بشرب الشاى الممزوج بأوراق النعناع الطازج مع جرعات باردة من ماء النيل. مررنا على مقهى حديث الطراز، يطلق عليه بعد تعريبه "كافيه"، اعتذر صاحبنا عن عدم الدخول مؤكداً أنه يستطيع أن يجد أمثاله فى أى مكان خارج مصر، لكنه يريد مقهى يستشعر فيه حضرة المحروسة وبهائها، طعم القاهرة وخصوصياتها، يشم فيه رائحة الخبز الطازج واللبن القشدى الصبوح. فما كان منى إلا أن ابتسمت، ثم أوقفت سيارة تاكسى سائلاً قائدها "خان الخليلى لو سمحت".

جريدة الأهرام المسائى – ١٩ أغسطس ٢٠١٦

البحث عن السعادة

أطفال. نلهو على شاطئ العمر. نتعثر فى ضحكنا ونزقنا. نبتكر ألعابنا من بيئتنا البسيطة الساذجة. من بقايا العلب سيارات. ومن الجوارب القديمة كرات يتفاوت حجمها واستخداماتها. ومن الورق طائرات تسافر صوب عين الشمس. نزهو ما ارتفعت ونتوتر ما اقتربت من مجالها طائرة أخرى. نصخب، نضحك، لنعود مع الغروب بنفوس صافية وسواعد متشابكة، ننتظر فجر يوم جديد.

كبرنا، وما عُدنا نمسك خيط الطائرة. فى محطات السفر، نلهث خلف بوابات المغادرة والوصول. نتذكر صبانا، نبحث عن ضحكاتنا فلا نجدها. نجتر ماض بعيد، فتتفجر الضحكات والبسمات. فى الزمن المراوغ أتآمر واصدقاء الطفولة على سرقة دقائق نستعيد فيها ضحكاتنا المهدرة على أرصفة الشتات، والإحباط، والانكسار، الممزقة بين سنوات البحث عن الذات، الضائعة بين نفير قطار العمر وملح الدموع.

الأمل فى العثور على إبرة السعادة فى كومة قش الأحزان هو مصدر تمسكنا بالحياة. نبحث عن السعادة أملاً أن تسكن نفوساً حائرة، وعواطفَ مشبوبة. ننتظر أن تمطر عيوننا فرحاً لا حزناً. نتعشم أن تتلون أيامنا بالتفاؤل والإيجابية، بالعواطف الجياشة،

بالاندماج مع من حولنا خاصة والمجتمع عامة.

فى الثامن والعشرين من يونيو ٢٠١٢ أعلن السيد بان كى مون – الأمين العام للأمم المتحدة– يوم ٢٠ مارس من كل عام يوماً للسعادة. فى هذا الصدد، أصدر برنامج "شبكة حلول التنمية المستدامة" التابع للأمم المتحدة بالتعاون مع بعض مراكز البحث المتخصصة "تقرير السعادة العالمى" متضمناً ترتيب ١٥٦ دولة على سُلم السعادة والهناءة.

من خليط مؤشرات حصة الفرد من إجمالى الناتج المحلى، والحياة الصحية، ومستوى الحريات، ومتوسط ثروة المواطنين، والفساد، والرعاية الاجتماعية يتحدد ترتيب الدول. الدنمرك أول القائمة، تليها سويسرا وآيسلندا. وبينما تأخر ترتيب الدول العربية، جاءت الإمارات فى المركز الثامن والعشرين، تليها المملكة السعودية فى المركز الرابع والثلاثين، فيما سكنت مصر المركز العشرين بعد المائة.

تُوضح المؤشرات التى اعتمدها التقرير إلى الدور الرئيسى للمناخ السياسى فى إيجاد بيئة إيجابية تتسم بالشفافية وتعظيم دور القانون تحت مظلة تؤمن المتطلبات الصحية والاجتماعية لمواطنين متساوون فى الحقوق، متفاوتون فى المسئوليات والواجبات. الاعتقاد بأن توافر الثروة فى دولة كفيل بتحسين ترتيبها مقرون بارتفاع باقى المؤشرات، ومن ثم يحدد أسلوب تناول التقرير ترتيب الدولة فى العام القادم، لذا

تعمل الدول المتقدمة على تحسين ترتيبها من باب الاضطلاع بالمسئولية عن تطور مجتمعاتها وعدم الوقوع فى فخ "كُله تمام".

أمريكا فى المركز الثالث عشر على سُلم السعادة، وتراجع سياسات الرعاية الصحية فى برنامج "أوباما كير" الذى أقره الكونجرس بأغلبية ضئيلة. أما كندا التى تحتل المركز السادس فتبحث عن بدائل لزيادة حصة الفرد من الناتج المحلى والرعاية الاجتماعية، وأنشأت الإمارات وزارة للسعادة لتعزيز بيئة مجتمعية إيجابية يقيم فيها أكثر من مائة جنسية مختلفة. بناء على هذه النظرة، ارتقت الدنمرك من المركز السادس فى العام الماضى إلى الأول هذا العام. فى حين أثرت السياسات الاقتصاد السيئة فى منطقة اليورو سلبيا على اليونان وإيطاليا، واسبانيا فتراجع ترتيبها.

وسواء اتفقنا أو اختلفنا فى آليات تقييمنا لسعادتنا كمواطنين، وتأكيدنا على أننا "أولاد نُكته"، أو أننا شعب قادر على تحويل أسباب شكاوانا وهَمنا وغمنا إلى نكات تدمع منها عيوننا، أو أن "شر البلية ما يُضحك"، إلا أننا يجب أن نبحث كيف تمتد عباءة حرياتنا وحقوقنا وقيمنا الشخصية فى ظل سيادة القانون مع الوقوف جميعاً على قدم المساواة كأسنان المشط.

جريدة الأهرام المسائى – ٢٦ أغسطس ٢٠١٦

صخب المساء

بيد خبيرة رسم على السبورة دائرة إلى جوار قوس. "وكعادته قبل الشرح بادر متسائلا"، "ما الذى يعنيه لكم هذان الشكلان". " تعلمنا على يد جيل اعتاد إثارة التساؤلات لبناء عقل متأمل".

تعلمنا أن خلف كل موضوع رسالة، ربما فاقت أهمية الموضوع. استمع إلى تعليقاتنا. حافظت ملامح وجهه الستينى على حيادها. يصعب أن تعرف موقع إجابتك من ملامحه. ما أن كفت ألسنتنا حتى التفت إلى الرسم فى هدوء. أشار نحو الدائرة شارحا هذا شكل الأسرة قبل ظهور التليفزيون. تتحلق فى المساء. تستمتع إلى بعضها البعض. أسرة مترابطة. ثم أردف، بظهوره انكسرت الدائرة، تحولت إلى قوس. التليفزيون قبلتنا.

ذهبت جدتى بأساطيرها،ومضت أمى بحكاياتها. صار الجلوس أمام البرامج المسائية أشبه بنوبات تعذيب. تصلبنا الدقائق أمام محاورين من صنف الشكلاتى والمتعصب والموقعاتى. تتقاذفنا أمواج الأفكار. لم نعد ندرى يمين من يسار. مؤيد من معارض. بناء من هدم. مستقبل من ماض. تاهت بوصلتنا، ففقدنا الطريق. ملايين الساعات يفقدها الوطن كل ليلة جراء جلسة أبناءه أمام شاشات تضر ولا تنفع، تحولهم فى الصباح إلى معاول هدم وأفواه رفض. إعلاميا

الحديث عن الإيجابيات يشجع الآخرين على اتباعها. تجاريا يتوارى البرنامج الردىء خلف صخب الحوار. وجود أزمة يعنى نجاح الحلقة. والضحايا مواطنون بسطاء مستفزون يمضغون يأسهم صباح مساء. باستقرار الكهرباء فقدت برامج الصخب الصيفى مادة ثرية، لطالما انتظروها. يملئون بها فراغات برامجهم اليومية. تركوها بحثا عن مصادر صخب أخرى. ربما يجدونها فى التعليم، الطرق، الانتخابات، وغيرها. فى بلد الغريب، يهرع أبناء المحروسة إلى الشاشات بحثا عن صورة لنيلها، أهراماتها، شوارعها، أناسها الطيبين، صورة يزيحون بها ملح الغربة من الحلوق. فإذا بها تضع ملحا على جرح. على الرغم من ستين عاما من خبرة التليفزيون، إلا أننا فقدنا البوصلة. مصر أول دولة عربية تطلق قمرا صناعيا يربط كل الدول العربية. كان بوسعنا أن نصدر ثقافتنا، علمنا، تفوقنا، لكننا اكتفينا بالأفلام والمسلسلات. انفجر سيل هادر من قنوات خاصة تبحث عن ربح بلا مضمون. مضى زمن تحلقنا فيه حول برامج من نوعية شاهد على العصر، زيارة لمكتبة فلان، ما لا يطلبه المستمعون، سهرة شريعى، وغيرها.

لا يتفق الاختزال والتبسيط مع حق المواطن فى معلومات دقيقة، واضحة، لا تسمح بلبس. مناقشة قضايانا أى ما كانت- لا يسمح بصخب. يا سادتى، لا يوجد وطن بلا قضايا. ولا توجد قضايا لا تستحق النقاش شرط البحث عن حلول فى هدوء. يقول الإمام

الشافعى رضى الله عنه– ما ناقشت أحدا إلا ودعوت الله وأنا أناقشه أن يوفق ويسدد ويؤيد من الله، منهج للحوار أرساه الإمام منذ اثنى عشر قرنا. يا سادتى، لا أحد يمتلك الحقيقة، لكل منا نصيب فيها يختلف بحسب علمه وفهمه.

فى وطن تمتد قضاياه من مصاريف الحضانة، حتى ثمن المقبرة، ننتظر أن تصبح برامجنا منابر نهتدى بها، تأخذ بأيدينا نحو الغد، تصقل فى أبنائنا قيم تمكنهم من مواجهة قضايا الحاضر ومشاكل المستقبل، تبرز فيهم ملكات الإبداع والابتكار، تنتج جيلا يقدس الوطن ويحترم الوقت. تحولهم فى الصباح إلى سنابل من نور تطعم الجائع وتبدد الظلام. تعلمهم أن المساء قرين السكون. تغنى به الشعراء. همسوا فى أذنه بأسرارهم، فما وشى. بثوه همومهم فما اشتكى. فكيف بنا نحوله إلى ساحة للصراخ.

جريدة الأهرام المسائى – ٢٣ أكتوبر ٢٠١٥

ثقوب الذاكرة

صحفى مهووس بتقصى الخبر. خالط الأحداث، فاستشرف المستقبل. رسم بأخباره حكايات يسترجعها القراء فى ليال السمر. اتسمت كتاباته بعمق يفتقده أولئك الذين يكتفون بجمع الأخبار من على نواصى المقاهى ومحطات الانتظار. اختلفت حوله الروايات، تماماً كما اختلفت حول معانى رواياته الآراء. على الرغم من مضى حوالى سبعين عاماً على نشر روايتيه "مزرعة الحيوان" و "١٩٨٤" للمرة الأولى إلا أنهما ما زالتا الأكثر حضوراً. جورج أورويل، كاتب إنجليزى غادر دنيانا قبل إتمام عقده الخامس، وما زالت كتاباته تأبى الرحيل. ننظر حولنا فتتجسد شخصيات رواياته واقعاً معاشاً، تحكى لنا كيف تبدو دولة أوشينيا بكل ما فيها من عيون وآذان. كيف توحد الكل فى حاكم، لم يعرف التاريخ مثيلاً له من قبل ولا من بعد.

"الأخ الأكبر يراقبك"، عبارة ترافقك أينما حللت أو رحلت فى "أوشينيا". لا خصوصيات. الكل قيد المراقبة. الكل قيد المحاسبة. هناك فى "وزارة الحقيقة" يتولى وينستون سميث مراجعة المخطوطات والكتب القديمة، والصحف المهترئة الحزينة. بناء على التعليمات، يقف عند عبارات بعينها ليعيد صياغتها، أو قل يزورها. فى غمضة عين تؤكد الكتب العقيمة ما تنبأ به الحاكم منذ عشرات السنين. يصرخ التلفاز، والمذياع، يرتفع صراخ مواطنين فقدوا الوطن وسكنوا عقل

الحاكم، فلا تنقطع تراتيل المجد صباح مساء. تضج الصفحات الأولى على منابر الجرائد متسائلة "ترى بالله عليكم، هل يجود الزمان بحاكم مثله، وهل لمثله قرين".

فى البلد الزنزانة، يلقى سميث ما لا يصلح للتصويب فى ثقوب الذاكرة، فتغدو الحقيقة سراب، والواقع وهم وهذيان. فى أوشينيا، حاكم يرى الكون فى أنفاسه، تملأ صورته البيوت، والشوارع، والمقاهى، والمكاتب. ولمَ لا، وكتب التاريخ تؤكد أن ما ذكره يوما –ولو عرضا– كان هو عين الصواب. فى أوشينيا تراقب نفسك بنفسك، فإن تقاعست قامت وزارة الحب بالأمر، تلك التى لا يدرى موظفوها كيف يقسمون وقتهم بين مراقبة مواطنى الدولة، وإعداد التقارير السرية، وحصص التعذيب الدورية، والتى عادة ما تنتهى بتبخير أولئك المعارضين، فلا يبدو لهم أثر.

غريبة هى أوشينيا، تمضى أيامها من أزمة لأزمة، ومن حرب لحرب. ومن قضية إلى قضية. مثقلون هم سكان أوشينيا بالمشاغل والمشاكل. انحنت اكتافهم تحت وطأة الهموم. تُرى أى مستقبل كان ينتظر أوشينيا إذا ما مضت للعلم بدلاً من الجهل، وتوسعت فى البناء بدلاً من الهدم، وأفشت السلام بدلاً من الحرب، ونثرت البذور بدلاً من الحرق.

اليوم، وبعد مضى نحو سبعين عام لا تزال رواية "١٩٨٤" تفرض

نفسها. تُرى ما الذى تخبأه ثقوب الذاكرة، تلك التى تأكل الحقيقة فلا يبدو لها أى أثر. وددت ذات صباح أن أمد يدى خلسة فى أحد تلك الثقوب علَّها تخرج بكتاب أو خريطة نجد فيها رسم الوطن. اليوم تمتلأ صفحات الجرائد وشاشات التلفاز بزملاء سميث، يزورون، ينافقون، يطبلون، يؤكدون فى الصباح وينفون فى المساء. أوراقهم مريبة ووثائقهم كئيبة، وكل مالديهم يباع فى الحال. ألتفت بوجهى بحثاً عن المحروسة، فأجدها تسدل نقابها خجلا فيأبى الوجه البهى الزكى أن يغادر، يقيناً أنها باقية دوام الأرض والسماء. برملها، بصخرها، بنيلها، بنباتها، بأبنائها. حفظ الله الوطن.

جريدة الأهرام المسائى – ١٥ أبريل ٢٠١٦

المماليك

تحت وطأة الحاجة إلى مزيد من الجند لجأ عبد الله بن هارون الرشيد -المعروف بالمأمون- إلى الاستعانة بجنود من تركمانستان يعزز بهم جيشه. من حاكم لحاكم صار الاستعانة بالمزيد من الجنود، الذين أُطلق عليهم فيما بعد "المماليك"، ضرورة لا غنى عنها. عزز من ذلك، ثقة تتآكل. ضعف وهوان. غدرٌ منتظر، وأطماع تتمادى. فى البداية استُجلب المماليك لينضوا تحت لواء الخليفة. شيئاً فشيئاً صار شراؤهم لصالح الأمراء والولاة تجارة رابحة سواء للنخاسين أنفسهم أو المماليك. يحصل النخاس على مبالغ طائلة نظير استقدام رجال أشداء يصلحوا للحرب. فى حين يحظى المملوك بامتيازات ترتفع مع قوته، وشجاعته. فى الترتيب المجتمعى، يأتى المملوك فى طبقة أعلى من أبناء المحروسة.

بحثاً عن الولاء المطلق، استقدم الصالح أيوب المماليك صغاراً. أجناس شتى، تركمان، فُرس، صقليين، وغيرهم. تربوا على فنون الحرب والطاعة. بإقامتهم فى جزيرة الروضة بالقاهرة أطلق عليهم الصالح أيوب "المماليك البحرية"، حيث زاد نفوذهم، واتسعت رقعة سلطانهم. ساندوا شجرة الدر فى صد الحملة الصليبية على مصر فتزوجت عز الدين أيبك -أحد كبرائهم- فصار أول سلطان من المماليك. بهزيمة طومان باى على يد سليم الأول طويت ثلاثة قرون من

حكم المماليك ليبدء الغزو العثمانى (ولا أدرى لماذا يطلق عليه فى كتب التاريخ "الفتح العثمانى"). على الرغم من استمرار حكم آل عثمان لثلاثة قرون أخرى إلا أن المماليك ظلوا قوة يصعب تجاهلها. عاود نجم المماليك فى الصعود مرة أخرى على يد على بك الكبير واستمر حتى مراد بك الذى فر إلى الصعيد بعد هزيمته على يد الفرنساوية – على حد قول شيخنا عبد الرحمن الجبرتى. برحيل الفرنساوية حاول محمد على إخضاع المماليك لسلطانه، فلما آيس منهم كانت مذبحة القلعة.

طويلةٌ هى رحلة المماليك مع المحروسة، بدأت منذ القرن الثالث عشر الميلادى. تفاوتت بين صعود وهبوط، كرٌ وفر، وحتى الآن لم تنته بعد. اليوم، غير المماليك ألوانهم، وأشكالهم، ورطانة ألسنتهم. محللون، متفيهقون، متسيسون، سائلون ومسئولون. شعارهم " ساوم وبع".

بوجه أتلفته مشابك الشد ومساحيق التجميل يجملون ويقبحون. سماسرة يبيعون ويشترون بشراً، أرضاً، سماءً، بحراً. باعة جائلون على شاشات التلفاز، وميكروفونات الإذاعة. على صفحات الجرائد، والمجلات. مرتشون، وأفاقون. مؤتمنون وخائنون. عباءة ثقيلة من شحم تلتصق بجسد المحروسة. ترهل القد الرشيق. ثقُلَ الخطو وتغضن الوجه الصبوح.

حيثما نولى واجهنا المماليك. يحتلون أرصفة الشوارع، والأسواق، والمصالح الحكومية. كتلة مصمتة من الهلام يساند بعضها بعضا.

يمتد فضائهم من صلب بيوت البسطاء والمعدمين إلى أصحاب الياقات البيضاء والمعاطف السوداء والساعات الفاخرة. كثيرون هم، عدد النمل والحصى. آتساءل، كيف هانت عليهم العشيرة. كيف رفعوا السيف فى وجه الأخ والأب. كيف زجوا بيوسف فى السجن. كيف وشوا بالمسيح. كيف خاضوا فى أم المؤمنين. كيف صاحوا يا لثارات عثمان. كيف تخلوا عن الحسين. ثم راحوا بعد كل هذا يتوضؤن بدم الشهداء خشية أن تفوتهم صلاة الجماعة.

إيه يا محروسة، كيف تسربوا إلى خلاياك. كيف ناموا بين جفونك. كيف سكنوا بين ضلوعك. تُرى، من أى باب دخلوا. لكم أنت مسكين أيها الوطن الحزين.

جريدة الأهرام المسائى – ٤ مارس ٢٠١٦

الدعاية الرقمية والانتخابات

انتهازى من الدرجة الأولى. تتلخص فلسفته فى الحياة فى حرفين "ظظ". مؤهل للتحول إلى الجهات الأربع وما بينهما. لا قيم. لا مبادئ. انتهازى من الدرجة الأولى. التقطته عين نجيب محفوظ من وسط الملايين فى رائعته "القاهرة الجديدة". تصورنا أنه حالة فريدة فإذا به نسل يتكرر دائماً وأبداً. اليوم، تمتلأ الشاشات وصفحات الجرائد بصور وأخبار محجوب عبد الدايم ورفيقه رؤوف علوان الصحفى المناضل فى سبيل المال كما رسمه محفوظ فى "اللص والكلاب".

فى الانتخابات يبدو اختيار رئيساً للجمهورية أسهل من اختيار ممثل لدائرة. ففى الأولى، عدد المرشحين محدود، وسرعان ما تتباين مستوياتهم لتتحدد بوصلة الاختيارات فى غضون أيام أو أسابيع.

فى الانتخابات البرلمانية تبدو الأمور أكثر تعقيداً، فطبقا لقانون الانتخابات ينتظر البرلمان دخول ما يقارب ستمائة عضو يمثلون ٢٣٢ دائرة انتخابية. عادة يصل متوسط عدد المرشحين إلى حوالى العشرين لكل دائرة. فى المعتاد لا ندرى الكثير عنهم، اتسعت جغرافيا الدوائر فصرنا لا ندرى على أى أسس نختار. الوضع فى المدن أصعب منه فى الريف حيث الخلفية العائلية أو التجارية تسمح بحصر الاختيارات بين أعداد محدودة. فى المدن لا يعرف الجيران بعضهم

البعض، ومن ثم يرتفع مستوى الحيرة فى الاختيار بين المرشحين، وفى الحالتين يبرز محجوب وصديقه ليملئا المكان والزمان صخباً وضجيجاً.

عادة تعتمد الدعاية الإنتخابية على المؤتمرات الجماهيرية، وتعليق اللافتات، وتوزيع المنشورات، ولصق الصور على السيارات. وعلى استحياء بدء دخول التليفزيون والراديو، الأمر الذى يرفع تكلفة الدعاية إلى مستوى يتخطى الملايين. على الجانب الآخر، قدمت ثورة الاتصالات حلولاً غير تقليدية من خلال شبكات التواصل الاجتماعى، وخدمة الرسائل القصيرة، وغيرها يسهل تطويعها لخدمة العملية الانتخابية والسياسية.

كان أول بروز ملموس للإنترنت فى التعامل مع الجماهير خلال الثورات العربية وما تلاها من حركات احتجاج مثل حركة "احتلوا وول ستريت" فى أمريكا، حيث ساهمت فى تعبئة الحشود الأمر الذى أدى ببعض الحكومات إلى فرض رقابة صارمة عليها امتدت إلى إغلاقها فى بعض الأحيان، ويعد الصراع الخفى بين الصين وجوجل الأبرز فى هذا الشأن.

وتشير التقديرات الحالية تجاوز تكلفة الدعاية عبر مواقع التواصل الاجتماعى وشبكة الإنترنت عتبة المليار دولار فى انتخابات الرئاسة الأمريكية القادمة، لتصبح الدعاية الرقمية فى صدارة الاستثمارات

والبوابة الرئيسية للتعريف بالناخبين لتتراجع إلى جانبها الوسائل الأخرى القائمة على علاقة من جانب واحد، حتى مع محاولات العديد من القنوات الإذاعية إقامة برامج حوارية مباشرة تظل العلاقة أبرد من نظيرتها على شبكة الإنترنت.

تتسم الدعاية الرقمية بسرعة الانتشار والتأثير والتفاعل مع المواطنين، فمن خلال الحاسب أو التليفون الشخصى يمكنك متابعة كل جديد والتعقيب عليه وإبداء رأيك والحصول على إحصاءات محدثة تسهم فى بناء صور المرشحين وتوقع النتائج. تمتلك الدعاية الرقمية أسطولا من شبكات التواصل الاجتماعى المؤثر مثل تويتر، فيسبوك، واتس آب، برايت كايت، ماى سبيس، وغيرها. رخيصة التكلفة مقارنة بالتليفزيون والراديو. ذات قدرة فائقة على التواصل مع الأفراد والمجموعات.

أيام ويبدأ سباق الانتخابات الذى نتمنى أن يلزم متنافسوه بإنشاء مواقع إليكترونية للتعريف بهم وببرامجهم وتيسر التواصل معهم. مواقع تنقل فكرهم ومؤتمراتهم وصولاً لدعاية انتخابية تفاعلية بين المرشحين والجماهير. علاقة تنتج لنا نواباً إيجابيين يدفعون بالمحروسة نحو التقدم فيتوارى منهم محجوب ورؤوف خجلا حتى وإن ساعدتهما أموالهما فى تمويل حملة دعاية غير مسبوقة.

جريدة الأهرام المسائى – ٢٨ أغسطس ٢٠١٥

الاختيار الثانى

عمل، زواج، سداد دين، تعليم جيد، حياة إنسانية، وغيرها، أحلام متواضعة. يحققها الملايين فى أرجاء المعمورة كل يوم، ومع هذا فهناك من يراها أحلاماً مستحيلة. مواطنون بحكم شهادة الميلاد والهوية. أسلَمهم تعليم بائس، وجهلٌ مقيم، ودينٌ مشوه، واقتصادٌ يترنح إلى قنوط. بُسطاء، علِماَ، ودَخلاً، وقيمة، تمضى حياتهم مع كل إشراقة شمس، من إحباط إلى إحباط، ومن يأس إلى يأس. ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت فاستحالت قمقماً يتخبطون بين جدرانه أو ينفجرون يأساً وغضباً. نسيهم الوطن فنسوه. فراحوا –فى يأس– يستجدون وطنا آخر على الشاطئ المقابل للمتوسط. تساوى لديهم الموت والحياة فراحوا يُقامرون بالعمر.

فى القاعات المُغلقة لمجلس النواب، تُناقش مسودة قانون "مكافحة الهجرة غير الشرعية" ، تلك التى أعدتها اللجنة الوطنية التنسيقية لمكافحة ومنع الهجرة غير الشرعية. توحى المسودة –التى تداولتها بعض المواقع الإخبارية– النية لإقرار أحكام تتراوح بين الحبس لمدد مختلفة وغرامات كبيرة. صدور القانون ضرورة، وتفعيله واجب، وتلافى أسباب الهجرة غير الشرعية أمر حتمى. أُتخمَت مكتباتنا قوانين رادعة –كقانونى المرور والبيئة– ولا نجد لها أثراً فى حياتنا، ينقُصنا التفعيل. فى الجوار، تتأجج النار فى صدور المعذبين لتصبح الهجرة

خيارهم الأوحد ومحترفى تهجير يبيعون بالمال ما لا يباع، وكلا الفريقين -مُهاجرٌ ومُهَجِر- لا تردعه القوانين.

مواطنون تجاهلهم المجتمع أحياءً، وتغافل عنهم أمواتا. مهمشين، بلا أسماء، بلا عناوين، هم فقط مجرد أرقام. فى الفصل، فات المُعلم أن يزرع فى نفوسهم حب الوطن. حدثهم عن القطط السمان، عن محترفى تدجين القانون، عن ثروات حرام صنعت رجالاً ذوى أصوات عالية ورائحة كريهة، ولم يُحدثونهم عن رجالٍ صنعوا أُمماً. فى المستشفى، لم يجدوا سريراً لأب نخره سوس أمراض نسيها العالم واحتكرها المصريون، باعوا أثاث البيت كى يشتروا علبة دواء، ثم تمنوا موتاً يرحمهم من وطأة مرض لا يعترف بلوائح التأمين الصحى. فى الاحتفالات الرسمية، تُردد السماعات صدى كلمات السيد المسئول بضرورة التخلى عن ثقافة العمل الحكومى وأهمية أن يحفر الشباب بأظافرهم فى الصخر كى يصنعوا مستقبلهم، فينفجر فى صدورهم غضب مدمرٌ مُهلِك. فى الوظيفة، يرنو الشاب المحبط بطرف عينه من حين لآخر إلى شهادته العالية المشنوقة على حائط ورشة النجارة، غَيبَ إطارها المُذَهَبْ عنكبوت مد خيوطه فى أرجائها، يذكره من حين لآخر برجل تمتد استثماراته المشبوهه فى كل مكان. على صفحات الجرائد المُلوثة، تسحقه مشاهد وطنٌ عَلِقَتْ به خفافيش ظلام، يرتعون، يُرتَشُون، يُسَمسِرُون، يبيعون، يُقايضون، وهم من كلِ حَدَبٍ ينسلِون.

غَرِقَ مركب. فُقد عشرين. خمسون. سبعون. الرقم مرشح لأكثر من مائة. مائة وعشرين، وأربعين، وستين. تخطينا المائتين. إطمئنوا. حَققنا رقمٌ قياسى كعادتنا فى كل المآسى. فى المساء، تبارت شاشات الصخب الإعلامى المأجور فى جر يتامى المشاهدين من عراقيب رؤوسهم، وكأن ما حدث لا يكفى حتى يُغشَوا. دوامات التدين المزعوم، "هل هم شهداء أم منتحرون؟"، نتعارك، تعلو أصواتنا، نمسك بتلابيب بعضنا الآخر، تتداول مواقع التواصل الاجتماعى مقتطفات من مهازل السخف الليلى، نبدى رأينا، نشتبك مع الآخرين، ننسى المركب، والغرقى، وفى الجوار يبتسم المخرج فى رضا، يهنئ نفسه والشياطين، "نَجَحنا .. اختلفوا .. صاروا شيعا".

إيه. أُسر بأكملها، استدانت، باعت مالديها. قرش على قرش، تُصبح الهجرة أكثر قُربا، والوطن أكثر بعداً. اجتثوا جذورهم فما تركوا زوجة ولا طفل. رحلة يعلوا فيها الموت على الحياة. رحلوا وتركونا نتسائل، إذا كان الموت اختيارهم الأول، فياترى ما هو اختيارهم الثانى؟

جريدة الأهرام المسائى – ٧ أكتوبر ٢٠١٦

فى انتظار الغيث

الفئران. مأساة كل صيف فى المدينة الفلتانة. تحت مبدأ "نبقى خالين مسئولية" يجتهد هنكار بيه –رئيس مجلس المدينة– ومساعدوه حضرة المعتز بجهله، وطرشان بيه أبو سماعة، وعز الدين خيبك فى اختراع حلول لا تتناسب مع مشكلة تتفاقم كل صيف. وبينما تكمُن الفئران فى جحورها اتقاء شتاء قارص يتشدق الرجل بإنجازاته فى القضاء عليها. فما أن يحل الصيف، حتى تضرب المدينة بأعدادها الهائلة مضافاً إليها صغار أنجبتهم فى فترة الكسل الشتوية. تأكل الأخضر واليابس. تدمر المحاصيل. تفسد الطعام. وكالعادة، يفاجأ هنكار بيه بالفئران. يسارع إلى أوراق صفراء مهترئة، يقرأ خطباً صدئة، ما عادت تأتى بجديد. ناس بالألوان الطبيعية، رواية ألفها فاروق الدمرداش –رحمه الله– معبراً بها عن سخطه من عقم الحلول فى الدول الفقيرة فكرياً.

لا تنفك، الكوارث الطبيعية تضرب بنى البشر من حين إلى آخر. بركان هنا، وإعصار هناك. فيضانات. عواصف. تصحر. سيول تغرق الأرض. نبتهل إلى رب السماء أن "يا أرض إبلعى ماءك، ويا سماء أقلعى، وغيض الماء".

فى الدول النامية تحتفظ الكوارث بطزاجتها مهما تكررت. ذات

الكارثة. نفس التوقيت. لكن الخسائر أكبر. تشير أحد الدراسات إلى ارتفاع حجم خسائر الدول النامية عنه فى المتقدمة بنحو ٢٠ مثل لذات الكارثة. سوء الإدارة. التهوين من حجم الأخطار. عدم وجود مراكز لإدارة الأزمات. ضعف البنية المعلوماتية. تأخر وصول المعلومة، ناهيك عن دقتها، يسهم فى وضع الدول النامية على رأس قوائم الأسوأ دائماً.

فى أغسطس الماضى، أعلنت هيئة الأرصاد الجوية تعرض مصر إلى سيول خلال شهرى أكتوبر ونوفمبر. ارتفعت دقة التنبوء بالطقس لتتيح للمسئولين الفرصة لاتخاذ التدابير اللازمة. بنهاية الأسبوع الماضى تحققت نبوءة الأرصاد. هطل الغيث على عموم المحروسة. تحولت الأمطار إلى سيول تكنس ما تجده من حياة. غرق من غرق، وطفا من طفا مثل كومة من قش تجرفها السيول. لا زرع. لا بيت. لا أرض. ما نتج عن السيول لا يوحى بالتواصل التام والإيجابى بين مؤسسات الدولة.

قطعت الطرق. تحولت أحياء بكاملها إلى مناطق عائمة يتواصل أهلها بالقوارب. تماما، على غرار مدينة فينيسيا الإيطالية، باستثناء الفارق الحضارى. عدم جاهزية شبكات الصرف رفع من حجم الكارثة. كلفنا عدم وجود سحارات تحتضن الماء ليعاد استخدامه مزيداً من الضحايا. أضاف شعار "كل شئ على ما يرام" اسماءً

جديدة إلى قائمة المشردين. فقدت خزائن الدولة مزيداً من ملايين هى أحوج إليها ولا تدرى كيف تعوضها. ما حدث فى المحروسة تكرر فى الأردن واليمن وبلدان أخرى. ولى زمن "أمطرى أنّى شئت".

وتحت مبدأ التأقلم، تحولت الكارثة إلى مقاطع نتداولها على مواقع التواصل الاجتماعى، نحصى أعلى نسب للمشاهدات، كم ضغطة "لايك". سباق محموم لعرض كل غريب، فبحجم الإثارة يزيد الإقبال.

فى وطن يقع أدنى خط الفقر المائى يصبح التخطيط للاستفادة بكل قطرة ماء فريضة، وإنشاء مراكز لإدارة الكوارث ضرورة. كما أن وضع خطط للإخلاء والتزام المواطنين بالقواعد والتعليمات واجب يخفض حجم الضحايا. ليصبح قدوم الغيث نعمة نرطب به حلوق جفت، وشفاة تشققت، ونبتة تطعم الجوعى والمحرومين. قطرات نرفع بها مخزوننا المائى بعد ما صرنا نخشى غدُ يعز فيه الماء بعد بناء السد. نخشى أن يأتى يوم يمر بنا النيل لا لشئ إلا ليتيمم بتراب الوطن. حفظ الله الوطن.

جريدة الأهرام المسائى – ١٣ أكتوبر ٢٠١٥

السياحة المستدامة... هدف مرتجى

من هدهد سليمان، إلى غراب قابيل، إلى طيور سيدنا إبراهيم جرت حكمة الله عز وجل. تعجب الهدهد من قوم لا يسجدون لله، وعَلَمَ الغراب قابيل كيف يوارى سوأة أخيه، وجسدت طيور أربع قدرة الله فى الموت والنشور. للطيور أسرار اختصها الله بها.

فى خط متعرج مضت قافلة سيارات الدفع الرباعى أشبه بثعبان يزحف على بطنه فى خفة لا تؤثر فيها وعورة الطريق. بحثاً عن موائل الطيور تركنا بلدة طيبة ورب غفور إلى صحراء ورب رحيم. قَصَدنا وادى نُعر فى جوف صحراء السويس بالقرب من العين السخنة حيث تغدو الطيور المهاجرة إلى شمس المحروسة شتاءً لتتكاثر وتربى أفراخها، وما إن يبدأ الربيع حتى تشرع فى العودة عبر مسارات ثابتة لا تتغير. خرائط طبوغرافية وإحداثيات بالغة الدقة محفورة فى تلافيف خلايا الطيور تحدد مسارات رحلتى الخريف والربيع.

للطيور مسارات تختلف بحسب أنواعها. تعبر المغردة البحر المتوسط مروراً بجزر صقلية ومالطة للتزود بالطعام والماء. وتمر الطيور الحوامة (كبيرة الحجم) عبر مضيق البوسفور فى تركيا فوادى غور بالأردن فسيناء فالساحل الغربى للبحر الأحمر، بخلاف مسار آخر يمر عبر مضيق جبل طارق.

الطريق فى البادية له هيبته. يطمئنك فيه دليل مثل عم هلال يحفظ دروبه. يتشمم رماله. ألف الكثبان وألفته. يستشعر المطر بخبرة بدوى محنك. للتدليل على خبرته يقسم أن تحريك حجر من مكانه دون علمه يلفت انتباهه. أحدق من نظارة جهلى إلى الرمل غير مدرك لأسراره ودروبه التى يراها الدليل ولا أراها.

عبرنا التلال والهضاب يحدونا الأمل. تمتد آثار السيول أسفل الجبل فى خطوط متعرجة لعدة كيلومترات. عمق الأثر يشى بهولها. كلما توغلنا فى الصحراء كلما اقتربنا من موائل الطيور. بعد نحو ساعتان من السير الشاق المتواصل داخل الجبل بدا الوادى بظله وشجيراته. إطمأنت القافلة إلى خبرة الدليل. فى فئ الوادى بدت الحرارة معتدلة، فإذا تجاوزته لفحتك الشمس. حاجز وهمى يفصل بين الظل والحرور، باطنة فيه الرحمة وظاهره لهيب.

إلى جانب الطيور تنتشر فى الوادى الآيائل والأرانب البرية. فى الوادى يعود الإنسان إلى الطبيعة البكر. هواء نقى. لا مواصلات. لا تلوث. لا ضوضاء. يأتى السياح إلى الوادى تحت مظلة السياحة المستدامة، فى إشارة للبعد البيئى. فى نُعر تقتصر الإقامة على يومين بليلة. بعكس مناطق أخرى مثل هضبة الجلف والفرافرة والداخلة وبحر الرمال الأعظم حيث تطول الإقامة إلى أسبوع. فى البادية نتعلم الترشيد. حصة الفرد ثلاثة لتر مياه يومياً لكافة متطلباته. الأكل فى

إناء واحد. بنكهة الصحراء والطبيعة البكر تتسلل رائحة شواء اللحم إلى الأنوف فتشتهى الطعام قبل مواقعته.

احترام البيئة بكل مفراداتها من طير وحيوان وجماد هو شعار السياحة المستدامة. لا تمتد يد إلى نبته لتقطعها. ولا إلى طائر فتصيبه. ولا إلى حيوان فتسلبه حياته. التأمل هو سيد الموقف. معايشة حياة أجداد مضوا منذ ملايين السنين هو الهدف. لا تليفزيون. لا راديو. لا إنترنت. لا صخب. عديدة هى اللاءات الإيجابية. لأول مرة أعرف معنى غسيل النفس.

للأسف. لاتحظى السياحة المستدامة بالاهتمام. مريدوها من الأجانب ينتظرون حملات توعية، وأبناء المحروسة لا يسمعون عنها. التكاليف للمصريين أقل بكثير من نظيرتها للأجانب، فلا طيران ولا تأشيرات. ثرية هى المحروسة بمواردها. الشمس مقصد. الرمل مقصد. البحر مقصد. كل المحروسة مقصد. حفظ الله الوطن.

جريدة الأهرام المسائى – ٨ أبريل ٢٠١٦

ما بعد كتاب ورغيف

ضاقت الفسطاط بما رحبت، فأسس جوهر الصقلى القاهرة فى عام ٩٦٩ كعاصمة تليق بالدولة الفاطمية. استغرق البناء ثلاث سنوات. تيمناً بكوكب المريخ والمعروف لدى العرب باسم "القاهر" أسماها جوهر القاهرة. بعد ألف عام، أقيم معرض القاهرة الدولى للكتاب بأرض المعارض بالجزيرة ضمن فعاليات الاحتفال بالعيد الألفى للقاهرة، وتحديداً فى عام ١٩٦٩، انتقل بعدها إلى أرض المعارض بمدينة نصر. اليوم يكمل المعرض عامه السابع والأربعين، وبحسبه بسيطة يصبح عمر قاهرة المعز ١٠٤٧ عام.

على عكس البشر، يصعد خط الشباب إلى المدن والأحداث كلما مر الزمان، تأثراً بدوام التطوير والتحسين. بمقارنة ماضى الكثير من المدن والعواصم بحاضرها، نجدها تزداد بهاء وشباباً كلما تقدم بها الزمن. منذ نحو أربعين عاما، كانت كثير من الدول مجرد مساحات شاسعة من الرمال، اليوم صارت عنواناً للمدنية والتقدم. منذ خمسين عاماً كانت سنغافورة تبحث عمن يدبر لها طعامها وشرابها. اليوم، وبخمسة ملايين مواطن ومساحة لا تتعدى نصف مساحة القاهرة تخطى إجمالى ناتجها القومى مرة ونصف ما تحققه مصر.

صغاراً، زرنا المعرض مفتونين بقاعاته العملاقة، بتنظيمه، بنظافته،

ببهاءه، بذوى الشعر الأصفر والعيون العسلية القادمين من أرجاء المعمورة لزيارة ثانى أكبر معارض الكتاب، بعد معرض فرانكفورت. نطوف كالمجاذيب بين أرفف الكتب. نحضر المسرحيات. نصغى للشعر. نشاهد الأفلام. تأخذنا المعارض التشكيلية والمحاورات. نأتى فى الصباح الباكر ونغادر فى المساء.

على مدار السنوات الماضية، ما عاد المعرض يعبر عن قامة المحروسة. شاخت القاعات. بهتت الألوان. ظهرت الشروخ. ما عادت الجدران تتحمل الوقوف فأزيل الكثير منها. طرق غير ممهدة تمتلأ بالورق، والمهملات، والفضلات والباعة المتجولون. تلاشت الحدائق. ميكروفونات صاخبة. دورات مياه غير نظيفة. شيئاً فشيئاً ينطفئ البريق، يخبو. خالف المعرض قاعدة الازدهار مع تقدم السن.

فى هذا العام، أطلقت وزارة الثقافة بالتعاون مع وزارة التموين مبادرة "رغيف وكتاب" تباع من خلالها الكتب بعشرة فى المائة من سعرها. امتدت طوابير الرجال والنساء لأكثر من خمسمائة متر أمام بوابات المعرض. نجحت وزارة الثقافة فى زيادة عدد زوار المعرض بينما بقى المعرض شيخاً يتوكأ على عصاه بينما تتناثر أغراضه فى غير نظام.

البحرين، ضيف شرف هذا العام. منذ عامين، كانت مصر ضيف شرف معرض البحرين الدولى للكتاب. بينما كان الراحل جمال

الغيطانى هو شخصية المعرض، الغيطانى صاحب التجليات، والزينى بركات، ورسالة فى الصبابة والوجد، ورسالة البصائر والمصائر، وغيرها صعب أن يغيب ظله.

إقامة معرض للكتاب فرصة لبسط نفوذ القوة الناعمة للدولة، لتصبح قادرة على جذب الكثيرين إليها دون عنف أو قوة. إيداع ذكريات ولحظات لا تنسى فى أذهان زوار المعرض يربطهم بخيوط شفافة بالحدث، وبالمدينة، وبالدولة. يسترجعونها فى لحظات الصفاء، وينتظرونها من عام إلى عام. تتوارث الأجيال حب المكان.

تطور الأداء ضرورة. تحديث أرض المعارض لتضم قاعات حديثة ذات طرز معمارية فريدة، فنادق، ومقار دائمة لشركات دولية ضرورة. وضع لوحات إليكترونية تتعاقب عليها برامج المعرض وأهم الرسائل ضرورة. وجود شاشات تفاعلية –بأكثر من لغة– تتيح للجمهور كتابة ما يبحثون عنه من كتب، دور نشر، وفعاليات ضرورة. شبكة مواصلات عامة مريحة ومحترمة ضرورة. معرض القاهرة للكتاب يحتاج إلى أن يصبح معرض القاهرة الدولى للكتاب، فعلاً لا قولاً.

جريدة الأهرام المسائى – ١٩ فبراير ٢٠١٦

معرض الكتاب

فى العام الماضى، انطلق معرض الكتاب تحت شعار "كتاب ورغيف"، وقتها كتبت مقالاً بعنوان "ما بعد كتاب ورغيف" منوهاً إلى حاجة المعرض للتطوير حتى يتناسب مع مقام وقيمة المحروسة من جهة، وعمره الذى قارب الخمسين عاماً من جهة أخرى، بدءً من المكان، والقاعات، والتنظيم، واستخدام تكنولوجيا المعلومات فى التيسير على الزوار من خلال شاشات تفاعلية تنتشر فى أرجاءه وتمكنهم من معرفة موقع دور العرض، وعناوين الكتب، ومناطق الخدمات من إسعاف، ودورات مياه نظيفة، وغيرها، يساندها بالخارج شبكة مواصلات تيسر وصول الزائرين، خاصة كبار السن، إلى بوابات المعرض دون مشقة. اليوم، وبعد انقضاء احتفالية هذا العام، لا تزال ذات الملاحظات واجبة.

فى معرض هذا العام، حلت المغرب كضيف شرف، والشاعر صلاح عبد الصبور كشخصية العام، عبد الصبور صاحب "فى بلد لا يحكم فيه القانون/ يمضى فيه الناس إلى السجن بمحض الصدفة.. لا يوجد مستقبل!!/ فى بلد يتمدد فيه الفقر ثعبان فى الرمل.. لا يوجد مستقبل".

بشكل عام، انعكس ارتفاع أسعار الخامات من أحبار وورق

وغيرها على أسعار الكتب فلاذ رواد المعرض بقاعات عرض الهيئة المصرية العامة للكتاب يبحثون عما يطفئ ظمأهم للثقافة، كتب تتنوع مجالاتها، سياسة، شعر، قصة، روايات، تنمية بشرية، وغيرها من كتب. أيضاً، نشطت الحركة فى منطقة "سور الأزبكية" والتى تعرض كتب عربية وأجنبية تتنوع مجالاتها بين ثقافة عامة وتخصصية بأسعار أقل نسبياً من السوق.

معرض الكتاب هو تكريم لنتاج فكر الإنسانية المتنامى بمعدلات أُسية بعد ابتكار يوهانس جوتنبرج للمطبعة فى القرن الخامس عشر، فى العام الماضى تجاوز عدد الكتب المطبوعة فى كل من البرازيل والصين ٤٥٠ ألف عنوان جديد متجاوزين أمريكا التى لم تتجاوز مطبوعاتها ٣٠٠ ألف، فيما تتأرجح حول ٧٠ ألف فى الدول الأوربية سنوياً، أى سبعة أمثال مصر، التى لم تتجاوز بعد عتبة العشرة آلاف كتاب جديد، مما يؤكد العلاقة الطردية الحاكمة لتقدم الدول وعدد وقيمة الإصدارات الجديدة سنوياً.

على الجانب الآخر، ومع دخول تكنولوجيا المعلومات مجال النشر، يفرض النشر الإليكترونى ذاته متجنباً طباعة المحتوى، جريدة كانت أو كتاب، مما يخفض الأسعار من جهة، ويتيح ارتفاع نسب التوزيع من جهة أخرى. ارتفاع استثمارات النشر الإليكترونى e-books، أو الطباعة الرقمية، من مليار ونصف المليار دولار عام ٢٠٠٩ إلى حوالى

١٦ مليار دولار فى العام الماضى يعطى مؤشراً لمعدلات تطور تعتمد على بنية معلوماتية قوية وسوق منفتح قادر على استيعاب عشرات آلاف المطبوعات سنوياً، وشهية عالية لهضم المحتوى المعلوماتى وإعادة صياغته كقيمة مضافة فى إجمالى الناتج القومى فى الدول المتقدمة، حيث تتصدر أمريكا وكندا السوق العالمية بإجمالى ١١ مليار دولار فى عام ٢٠١٦.

مؤخراً، تحولت الكثير من المجلات العريقة من النسخة الورقية إلى الإليكترونية المتميزة بتفاعلها السريع مع القراء، وقياس ردود فعلهم، وملاحقة الأحداث أولاً بأول. النيويوركر الأمريكية، والتى مضى على صدورها زهاء مائة عام، ويراجع كل مقال فيها عشرين عين، وعشرة أقلام قبل أن يرى النور، باتت رقمية. النيوزويك الصادرة عام ١٩٣٣، تحولت منذ ثلاثة أعوام للنشر الإليكترونى متأثرة – كسابقتها – بارتفاع تكاليف الطباعة وانخفاض مبيعات النسخة الورقية.أيضاً توقفت جريدة السفير اللبنانية، بعد أكثر من أربعين عام، مكتفية بتصدير صفحتها الإليكترونية بكاريكاتير الراحل ناجى العلى مُصَوِراً سواد حالك وقمر باهت وقلم يبكى. لكم هو قاسٍ بكائك يا قلم، ولكم هو قاسٍ صمت الكُتاب والمفكرين، أولئك الذين يتلألأ سواد حبره منورا.

الموسيقى لتنظيف المدينة

مجموعة من الشباب اختلفت تخصصاتهم فجمعتهم الموسيقى. ألفوا فيما بينهم فرقة موسيقية. الإمكانات محدودة وكذلك الشهرة. يقيمون فى حى نسيه المسئولون فتحول إلى مقلب للقمامة ومصدراً للأوبئة. شراء مسكن فى منطقة راقية، نظيفةٌ، يتطلب الكثير من المال. بالكاد تسد عائدات عمل الفرقة ضرورات الحياة. فى سعيهم اليومى من وإلى العاصمة ينظرون فى أسى إلى الشوارع النظيفة. تُرى هل كانت نظافة العاصمة سبباً فى قذارة شوارعهم. فى المدن الأنيقة تتوزع صناديق القمامة، هذا للورق، وذاك للزجاج، وهذا للقماش. إرسال الشكاوى للمسئولين لم يحرز تقدماً، بل ربما زاد ما يرسلونه من شكاوى من حجم المخلفات الورقية. ذهبت صرخاتهم أدراج الرياح. حول أكوام القمامة الكل سواسية، الفقراء، الكلاب، القطط، والفئران. كم هو مؤلم أن يصبح صدرك وطناً للهموم.

ذات يوم، اصطحبهم قائد الفرقة إلى أحد مقالب النفايات، وقفوا ينظرون إليه فى دهشة وهو يقلبها بيديه العاريتين بحثاً عن شئ لا يعرفونه. ضحكات، غمزات، تعليقات، نكات. ألقى إليهم علباً من الصفيح وبراميل صغيرة تغيرت أشكالها بفعل ضغط كتل القمامة عليها. سلم كل منهم قطعة، ثم أردف "سنصنع من هذه العلب أدوات موسيقية .. ستصبح آلاتنا الجديدة صرخة ضد القمامة".

لم يكن الأمر سهلاً، صنع كَمَان، تشيللو، أو حتى طبلة يتطلب مهارات عالية. إنسيابية الصوت، مراعاة فروق السلم الموسيقى، الانتقال من مقام إلى آخر، بدا الأمر تحدياً كبيراً. استخدموا المثاقب الكهربائية، المسامير، البراغى، وعِدد ليس لها علاقة بالموسيقى. شيئاً فشيئاً تستجيب الآلات الجديدة، بالكاد تنطق الحروف، تُتَهْتِه، صارت الحروف جملاً موسيقية. إمعاناً فى توصيل رسالتهم تركوا آلاتهم دون طلاء، استخدموها كما وجدوها.

"حفل موسيقى لفرقة العزف على المخلفات"، أول سطر فى الإعلان عن الحفل. فى البداية حضر جمهور لا بأس به، مدفوعاً بالرغبة فى المشاهدة أكثر من الاستمتاع بالموسيقى. نجاح الفرقة فى العزف وفى توصيل رسالة واضحة عن معاناة مناطق محاصرة بالقمامة والأوبئة دفع بالفرقة إلى أوج الشهرة.

الآن تستطيع الفرقة أن تقطن فى العاصمة، لكنها تأبى ذلك فالرسالة لم تنتهى بعد. القمامة ثروة. القمامة مصدر للدخل. القمامة كنز لإعادة تدوير الكثير من المنتجات. القمامة مصدر للطاقة. وضعت شهرة الفرقة المسئولين الحكوميين فى حرج. اليوم، تطوف الفرقة أنحاء العالم. أنصار البيئة يروجون لها. المدافعون عن المناخ يدعونهم للعزف فى المؤتمرات العالمية. ويتداول مئات الآلاف مقاطع موسيقية تعزفها الفرقة على آلاتهم المصنوعة من المخلفات.

فى يناير الماضى عقدت فعاليات قمة طاقة المستقبل فى أبو ظبى. الإمارات دولة تخطو كل صباح خطوتين للأمام، فتزداد بهاءً فوق بهاء. عادة يفتتح القمة رئيس دولة. فى العام الماضى افتتحها الرئيس السيسى تاركاً فى آذانهم صدى كلماته "خلوا بالكم من بلدكم". هذا العام افتتحها الرئيس المكسيكى "إنريكه بينيا نييتو" بكلمة عن مستقبل الطاقة المتجددة، تبعتها كلمة للسيد "بان كى مون" الأمين العام للأمم المتحدة.

التصفيق والإعجاب بما يقدم فى الحفل يؤكد الإعداد المهنى الجيد. توارت الفهلوة وتقدم التخطيط. تراجع الجهل وتقدم العلم. من رحم التحدى يولد الإبداع. ووحدها حصدت فرقة باراجواى للعزف على المخلفات أكبر قدر من التصفيق، تنحنى الفرقة فى تواضع ويعقب رئيس الفرقة قائلا "يلقى إلينا العالم بالمخلفات ونحن نرد عليه بالموسيقى"، فتشتعل القاعة بالتصفيق من جديد.

جريدة الأهرام المسائى – ٥ فبراير ٢٠١٦

ص ١٢٠

صفحة بيضاء

همـوم من هنا وهناك

وطن فى حقيبة السفر

"مواطنون دونما وطن .. مطاردون كالعصافير على خرائط الزمن .. مسافرون دون أوراق .. وموتى دونما كفن"، جاءت هذه الكلمات فى افتتاحية قصيدة "لماذا يسقط متعب بن تعبان فى امتحان حقوق الإنسان" للشاعر نزار قبانى رحمه الله يصف بها شتات العرب. أهو استشراف الغد. أهو النظر عبر الغيوم وخلف الستر. اليوم تعبر كلمات نزار عن واقعنا العربى المرير، فاليوم تفرغ بيوت من قاطنيها، ودول من مواطنيها.

فى كل صباح، تحمل قوارب الموت مهاجرون جدد. نساء، أطفال، شيوخ، شباب، مسيحيون، مسلمون، بيض، سمر، مهاجرون من كل الأطياف. تلفظهم على الشاطئ الآخر الذى طالما تطلعوا إليه بعيونهم وقت كانوا يلهون على شاطئ الوطن فى مواسم الصيف. كم مرة تخيلوا رماله، تضاريسه، مناخه، نساءه، رجاله، نقوده، لكنهم أبدا ما

تصوروا أن يرحلوا إليه مرغمين، تحيط كل منهم سترة نجاة أبدا لم تعصمه من الغرق.

قوارب هى أم قبور، لا أدرى. ملابس هى أم أكفان، لا أدرى. أراهم، يمضون مدفوعين تحت وطأة سيف الموت ومعول الخراب، يرحلون من موت إلى موت، ومن ذل إلى ذل، ومن قبر إلى قبر، حتى إذا ما وطأت أقدامهم البلد الغريب ساقوهم مثل قطعان البقر.

"قف. أنت ممنوع من العبور" صرخ رجل الشرطة فى تحد. وقفوا مستسلمين، وجوههم للحائط، منكسة هى رؤوسهم تحت وطأة القهر، منكسرة هى عيونهم من مهانة الرفض. فتشوا عيونهم، مسامهم، نبشوا عقولهم، وعندما لم يجدوا شيئاً تركوهم كومة من لحم يلهو بها الريح والمطر، تتطاير كحفنة من أوراق الشجر.

تركوا أوطانهم. ملاعب الطفولة. حلم الشباب. سكن الشيوخ. قبر

العجائز. تركوا أوطانهم، تتدلى مفاتيح بيوتهم حول أعناقهم، يحملون أطفاهم على الأكتاف، بينما أوطانهم معبأة فى حقائب السفر. تقلص الوطن حتى صرنا نحمله فى أيادينا بعد ما كان ملء السمع والبصر.

فى الغرب، من الممكن أن تفقد قلماً، ورقاً، بيتاً، شخصاً. لكننا فى الشرق –ومنذ سبعون عاماً– اعتدنا فقد الوطن. هناك، فى الشام كان لنا وطن. ما زالت أعلامه ترفرف داخل قاعات الاجتماعات، فى صالات الأمم المتحدة، وعلى أسوار جامعة الدول، وفى بعض الصالونات، وما عاد أحد يدرى كيف يعود الوطن.

اليوم، تتكرر المأساة الملهاة. بالأمس حمل الفلسطينيون وطنهم فى حقيبة سفر وتفرقوا. اليوم يكرر السوريون والعراقيون والليبيون ذات العمل. بالأمس فقدنا وطناً، واليوم نفقد أوطاناً. بالأمس فقدنا بلداً واليوم نفقد –فى دفعة واحدة– خُمس بلاد العرب. تحولت أوطاننا إلى شقق للبيع، يسلبها من أيادينا تجار الأوطان، فكل شئ يا سيدى معروض للبيع، تحول العالم إلى سوق نخاسة، فبدلا من أن تشترى جارية تحتار فى لونها، أصبح من الأيسر يا سيدى شراء وطن.

عرفنا سماسرة يعرضون سيارة، بيتاً، مقهى، لكننا ما سمعنا ولا رأينا سمساراً للوطن. إيه يا وطنى، بأى شئ أفديك، وكلى معروض للبيع، فأرضك، ماؤك، سماؤك، وما عليك من نساء، ورجال، ودواب، وطيور، حتى العناكب صارت معروضة للبيع مثلها مثل البشر.

إيه يا وطنى المشنوق على بوابات السفر. إيه يا وطنى المباع على النواصى بالقطعة، ينادى عليك المزايدون، والمنافقون. بالأمس كنا ننادى طفلاً فقدناه، واليوم ننادى وطنا فُقد. إعلان ... "فقد وطن .. على من يجده الاتصال بجميع أبناء الوطن". حفظ الله الوطن.

جريدة الأهرام المسائى – ١٨ سبتمبر ٢٠١٥

فى مدينة لا

"لا". حرفان يختزلان قاموس الرفض والعصيان. "لا" ببساطتها وعنفوانها تجتذب عشاقها. للرفض تعبيرات تتفاوت بين حرف منطوق وتحريك الرأس أو السبابة شمالاً ويميناً. بحسب الموقف، تتأرجح "لا" بين المديح والهجاء. إن صرخت بها فى وجه طاغية، صارت ثورة يرددها الزمان ويمسك عبقها المكان. إن قيلت تكبراً، صارت لعنة تطارد قائلها وإن طال به الزمان.

صرخ بها "سبارتكوس" ضد اضطهاد أسياد روما للعبيد، فصار أيقونة ضد استعباد الإنسان للإنسان، وضد التفرقة العنصرية بين بنى البشر. فى قصيدته "كلمات سبارتكوس الأخيرة" يستعير أمل دنقل ملحمة سبارتكوس ليعبر عن رفضه لاستفتاءات لا تعرف نتائجها سوى الرقم تسعة، ٩٩,٩٩٪، فمجد أولئك الذين قالوا لا فى وجه من قالوا نعم.

مستفيداً من براعته فى إسقاط الماضى على الحاضر، نشر أمل قصيدة "أقوال جديدة عن حرب البسوس" محتجاً على اتفاقية كامب ديفيد. استعار حرب البسوس ورفض اليمامة ابنة كُليب الصلح على دم أبيها المقتول غدراً، مرددة "أبى. لا مزيد. أريد أبى، عند بوابة القصر. فوق حصان الحقيقة منتصباً من جديد"، كشرط للصلح،

فاشتعلت الحرب نيف وأربعين عام.

فى أحد ضواحى مدينة لا وتحت وطأة الاعتقالات أصدر مصطفى أمين رواية "لا". ولأن لا واحدة قد لا تكفى، أصدرت بهية شهاب منذ سنوات قليلة كتابها المعنون "لا ألف مرة". بهية المفتونة بالخط العربى ومحاولات حصر أنواعه، غاصت وبحثت عن أشكال لا فى كتابات ونقوش تجاوز عمرها ١٤٠٠ عام، أملاً فى تقديم كتاب يجمع بين الماضى والحاضر. عبر خيط الزمن يتفاوت رسم لا، صريحة، مراوغة، وغامضة. إنسيابية، انزلقت من سن الريشة على سطح الورق. مزخرفة، تباطأت يد الفنان فى صياغتها. حادة، رسمتها يد عصبية وسريعة. ألف شكل تراوحت من نعومة ودبلوماسية لا إلى صرامتها القاطعة.

ما يجب أن نعيه، أن العيش فى مدينة لا، لا يعنى أنك دائما خارج على النظام. فى بريطانيا، توجد حكومتان، الأولى تنفيذية تشكلت بناء على نتائج الانتخابات ويرأسها ديفيد كاميرون، رئيس حزب المحافظين بعد دخوله فى إئتلاف مع حزب الديمقراطيين الأحرار. وأخرى تعرف بحكومة الظل، يرأسها جيريمى كوربن رئيس حزب العمال المعارض، ويعين أعضائها من الأحزاب غير المشاركة فى الحكومة التنفيذية. تتولى حكومة كوربن مراجعة أعمال حكومة كاميرون وتوجيه النقد لها إن لزم الأمر. علاوة على ذلك، تعد حكومة الظل بديلاً جاهزاً حال

سقوط الحكومة التنفيذية.

فى يونيو الماضى أفضى الاستفتاء الذى نظمته المملكة المتحدة إلى إعلان خروجها من الاتحاد الأوربى. عبثاً ضاعت محاولات ديفيد كاميرون رئيس الوزراء لحث الناخبين على التصويت للبقاء فى الاتحاد. على الجانب الآخر، يواجه رئيس حزب العمال المعارض كوربن ضغوطاً من داخل حزبه، على خلفية اتهامه بالتقصير فى جهود منع الانفصال، حيث استقال معظم أعضاء حكومة الظل وطالبوا بتنحيه، كما حجب حزبه الثقة عنه. الدرس البريطانى يؤكد أن المعارضة لا تقيم فقط فى مدينة لا، بل حيث توجد المصلحة العامة. يقيناً أن مصلحة الدولة فوق الجميع.

يدعونا الدرس البريطانى للبحث عن لغة تأنس فيها لا ونعم، تتعايشان، تتساندان، وقتها نستحث لا التى تزرع فى مدينتنا الأمل، وفى عقولنا التساؤل البناء، وفى نفوسنا احترام الآخر. لا، تحيل مؤسساتنا إلى طاقة عمل خلاقة، ومدارسنا إلى منصات علمية عالمية، وعشوائياتنا إلى نظام. لا، ترد تجاوزاتنا وتشرذمنا. وقتها سوف نبحث عن ألف لا ولا.

جريدة الأهرام المسائى – ٨ يوليو ٢٠١٦

ولا يـوم طـين

ضاقت اعتماد بالنفى، فَقَدَ الزوجُ مُلكه. ترك مملكته منفياً ومسلوب الإرادة. مضى زمن المجد، والشعر، والفروسية. تركوا الوطن ملوكاً ونزلوا المنفى عبيداً. أربع سنوات وما عادت تطيق صبراً. ملكٌ سابق، بلا حيلة، لا يملك قوت يومه. تعمل بيديها هى وبناتها كى يجدوا ما يأكلون. انفجرت فى وجهه، "لم أر معك يوم هناء"، حملت كلماتها ما لا تصفه الكلمات من ضيق وغضب وقهر. نظر إليها فى عتاب، ثم عقب فى هدوء "ولا يوم طين". شملها خجل وأسى. ما عادت تدرى كيف تخفى خجلها من ذاكرة تشدها إلى زمن بعيد لا يُنسى.

"رُميكة" جارية مثل آلاف الجوارى فى إشبيلية. تمضى أيامها فى خدمة سيدها وغسل الأوانى عند ضفة النهر، لتعود بأوان نظيفة وأقدام يغطيها الطين. فاتنة، تبحثُ عن أملٍ يفاجئها به غدٌ لا تعرف متى يأتى. أقصى ما تنتظره أن تصبح حرة. تهب حياتها لزوجها وأطفالها. يأخذها الخيال بعيدا، تحب وتكره، تنجب الأولاد والبنات. يكبُرَ الأولاد وما تكبُر. حلم بعد حلم، ما عاد لها سوى الحلم.

لم يحمل صباح ذلك اليوم ما يوحى أنه ليس كأى يوم. تقف رُميكة فى الطين مع صويحباتها، تغسل أوانيها حين مر بها رجلان، تبدو من هيئتهما أنهما ذوا شأن. على الرغم من تقارب خطوهما، إلا أن

أحدهما يخاطب الآخر كسيد. المعتمد بن عباد، ملك إشبلية، ووزيره ابن عمار، هذا ما عرفته من سيدها. فُتن بها المعتمد، عجبه لحظها ومنطقها، أعتقها من سيدها، اشتق لها اسماً من اسمه، اعتماد، وتزوجها. هام بها وما رد لها طلبا. اشتاقت إلى رؤية الثلج، فزرع لها أشجار اللوز على قمم الجبال، حتى إذا ما أزهرت كسا لونها الأبيض الثلجى قمم الجبال.

المعتمد بن عباد، أحد أبرز ملوك الطوائف. تلاشت الدولة الأموية التى أسسها عبد الرحمن الداخل فى الأندلس ليبدأ عهد الطوائف. أكثر من عشرين ملكا يتولى كل منهم حكم مدينة. مرسية، قرطبة، إشبلية، غرناطة، طليطلة، وغيرها. بدلا من أن يتحدوا استقل كل منهم بمدينته. على الجانب الآخر، وحد ألفونسو السادس عدة إمارات تحت قيادته. ضعف هنا وقوة هناك. جزر ومد. قطعة قطعة تسقط الأندلس ولا أحد يعتبر، ظن كل حاكم أنه الأقوى، وما حكم. استعانوا ببعضهم على بعض، وبغيرهم على بعضهم. استعان المعتمد بيوسف ابن تاشفين سلطان المرابطين لصد هجوم ألفونسو. ثم ما لبث ابن تاشفين أن انقلب عليه ونفاه أسيراً إلى المغرب.

تسترجع اعتماد ذكرياتها، تتذكر وقفتها فى شرفة القصر لرؤية صويحباتها وهن يغسلن أوانيهن فى النهر. اشتهت اعتماد حمل الأوانى وغسلها فى النهر. تعجب المعتمد من طلبها، فألحت. استشار

صديقه وكاتم سره "ابن عمار" (والمنقلب عليه بعد حين)، فأعد لها طريقاً للنهر مغطى بالحناء المعجونة بالطيب وماء الزهر بدلاً من الطين، ينتهى بحوض كبير اختلط ماؤه بالعطور. مشت اعتماد فوق الحناء. تغوص قدماها فيصطبغ الكعب البض الأسيل باللون الأحمر القانى. نزلت الحوض واغتسلت بالطيب. لوحتها الشمس، فزاد ألقها. يوم مشهود لا تنساه اعتماد، ولا إشبلية التى اطلقت عليه "يوم الطين".

أعادت كلمات المعتمد ذكريات العمر أمام عينيها. خجلت من نفسها قبل أن تخجل من زوج خانه أصدقاؤه ليعيش مغلوباً على أمره ويموت كمداً. مضى زمن ملوك الطوائف، ومضى زمن المرابطين، ثم دولة الموحدين، فدولة بنى الأحمر لتسقط الأندلس، تماماً كما تسقط دول كثيرة الآن. حفظ الله الوطن.

جريدة الأهرام المسائى – ٢٥ مارس ٢٠١٦

كتاب الجغرافيا

جلوساً نتابع من شاشة التلفاز أخبار وطن تتغير ملامحه على مدار الساعة. فعلى خلاف النظريات العلمية، تتمدد وتنكمش سلطة الدول فى الوطن العربى صباح مساء. تحولت كثير من الحدود إلى كتل ثلجية تتغير ملامحها مع الحرارة والبرودة. قطع بلورية ينام مواطنوها فى عكاظ ويستيقظون فى دمشق. يحلمون بخيمة وكسرة خبز. يرسم أطفالهم بالجير الحى قلماً وكشكول درس. يجددون مع كل شروق شمس وقفتهم فى طوابير الذل والمهانة انتظاراً لحفنة من أرز. يسترجعون ذكرياتهم عن الأرض الوطن. يتساءلون أواقع كانت أم أحلامٌ فى ليالِ الصيف. مسافرونَ فى الزمن. مهاجرونَ بلا هدف. طوابير نمل هُم، لكنهم لا يملكون –مثل النمل– شيئٌ يُدعى الوطن.

فريدون نحن فى تفتتنا، وانقسامنا. أعجزنا الأوائل، فما صار ينازعنا أحد. ابتكرنا مئات المليشيات والجماعات المسلحة. من الخوارج إلى داعش يسيل الدم العربى بلا سبب، وبلا ثمن. احتكرنا صفات مشردون، مهاجرون، لاجئون. قديماً قال أبو العلاء "وإنى وإن كنتُ الأخيرُ زمانُه .. لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل". وبحسب علم خادمكم المتواضع، قصد المعرى تحدى الآخرين بشعره وأدبه، لا بتقسيم الدول وتقطيعها. يؤكد ذلك تنوع انتاج أبى العلاء من شِعرٍ فريد يصلح لكل العصور، ونثر نتوقف عنده متأملين. اليوم تخطت

معان أبى العلاء حدود الأدب لتستقر فى كبدِ الجغرافيا والتاريخ.

فى الوطن الهش تتغير معالم البلدان مع استدارة القمر ومع سقوط المطر. ما يقع اليوم فى سلطة الدولة ينتقل فى المساء إلى المعارضة وفى الصباح إلى داعش. يومياً، تتنافس سوريا والعراق على المركزين الأول والثانى للدول الأسرع انهياراً وانكماشاً. تعتمد استراتيجية العراق فى التقسيم على عزيمة أبنائه، بينما -للأسف- لم يعد فى سوريا أبناء حتى يقتسموها. أكلت الحرب الشباب، وما زالت تبحث عن مزيد. برعاية داعش، ضاعت الشام والكوفة، وصار لدينا ولايات غير متحدة، ولاية نينوى، ولاية الرقة، ولاية كركوك، ولاية حمص، ولاية برقة، والبقية تأتى.

أيضاً، يُقدم لنا اليمن آية من آيات التشظى والانقسام، فيما تتحول ليبيا على مهل إلى برميلِ بارود يُنتظر سماع دوى تفجيره فى القريب العاجل، لتتكفل توابع التفجير بِهز الشمال الإفريقى. يبتهل أهل لبنان مع كل أذان مسجد ودقة جرس كنيسة أن يمنحهم الله رئيساً يرضى به سياسيو لبنان. لكم هو صعبٌ يا سيدى أن تجد رئيساً للبنان يرضى عنه أولئك الذين يستعرضون كل يوم قدراتهم الخارقة فى تعطيل الدولة وتحويل قراراتها الرسمية إلى نشرة للطقس. متوقعةٌ ومملة. سهل أن تتنبأ بها، تعيشها، لكنها لا تؤثر فى قراراتك ولا قناعتك الشخصية.

بينما أقلب صفحات كتاب الجغرافيا العربى، أطلق زفرة ألم، حيث الوطن غير الوطن، والتضاريس غير التضاريس، والأهل غير الأهل، حتى العدو ما صار هو العدو. بالأمس سُرق وطن، واليوم تُسرق أوطان. بالأمس بنيت مستعمرة، واليوم تقوم ولايات. أسفاً وأسى على خير أمة أُخرجت للناس، يردد الفضاء صوت الدكتور عبد الرحمن البيضانى (رحمه الله) متسائلاً "لماذا نقطعُ رؤوسنا بسيوفنا، ونشترى مشانقنا من عرقنا، لماذا نبيعُ المجدَ المدفون، ونفخر بالكرامةِ المهدرة. يا إلهى، إننا الجلادون والضحايا !!". فى صمت، أُغلق كتاب الجغرافيا منتظراً شروق شمس الأمل من شقوق أيادى البسطاء والمكافحين، أولئك اللذين يحرسون ويحرثون. طوبى للبسطاء وحفظ الله الوطن.

جريدة الأهرام المسائى – ٦ مايو ٢٠١٦

مكة.. مانهاتن

لم تكن باحثة الاجتماع جنيف عبده الأمريكية المولد اللبنانية الأصل تخطط على نحو مقصود لإصدار كتاب عن حياة المسلمين فى أمريكا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١. كل ما فى الأمر أن الأحداث جمعتها بمواطن أمريكى من أصول عربية رغب فى الترشح للكونجرس الأمريكى. صحبت جنيف الرجل خلال جولته الانتخابية فى شوارع سان فرانسيسكو بهدف التعرف على ردود فعل الأمريكيين. اسم الرجل كان كفيلاً للتعريف بأصوله العربية وكافياً لأن يشيح السكان وجوههم بعيداً عنه. قبول أوراق ترشحه يرتبط بالحصول على موافقة مائة ألف صوت على الأقل، وفى ظل ردود الفعل السلبية من السكان رأت جانيت أن ترشحه مضيعة للوقت، بينما رآه هو ضرورة يتيح من خلالها الفرصة لمسلمى الجيل التالى للترشح.

كلا الموقفين –من المرشح والسكان– كانا سبباً لإقدام جنيف على إعداد كتاب "مكة والاتجاه العام" الصادر عن الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العربية فى ترجمة للرائعة ليلى زيدان.

قامت جنيف برحلات عدة فى أنحاء أمريكا حتى تتمكن من إعداد الكتاب، تتبعت الأصول وتطور المجتمعات العربية فى أمريكا. تصورات الأجيال الأولى للمسلمين المهاجرين الذين جاءوا يحملون حقائب

سفرهم وعاداتهم وملامح الوطن الأم. هاجرت الأجساد وأبت الأرواح والذكريات أن ترحل. حياة المسلمين فى أمريكا والتى يرجح أنها ترجع إلى نحو ثلاثة قرون سابقة اختلفت تماما بعد الحادى عشر من سبتمبر. نسى جيرانهم أنهم مواطنون أمريكيون وتذكروا أصولهم العربية.

تتفاوت رحلة الإسلام فى أمريكا من "والاس فارد" الذى ادعى أن الله أرسله من مكة لإنقاذ أمريكا، إلى المتنبئ "إليجا محمد"، فأبنه الذى شكك فى إدعاءات والده بالنبوة، ثم "مالكولم إكس" المعروف باسم الحاج مالك المدافع عن حقوق السود والذى بدأ الدعوة بتأليب السود ضد البيض والدعوة للعنف، ثم نبذه فيما بعد لطريق التشدد داعياً للعيش فى سلام، وصولاً إلى الشيخ "حمزة يوسف هانسون" الذى وقف إلى جوار الرئيس بوش فى البيت الأبيض يدين هجمات سبتمبر التى وصفها بن لادن بغزوة مانهاتن، فى إشارة لتدمير برجى التجارة العالمية فى مدينة نيويورك.

الكثير ممن اعتنق الإسلام لم يغير اسمه فى إشارة لكونه مواطنا أمريكياً فى المقام الأول يتمتع بنفس الحقوق التى يحصل عليها الآخرين بغض النظر عن دياناتهم ومذاهبهم. "أنجريد ماتسون" نموذج لإمرأة مسلمة تريد أن يعى الرجال أهمية دور المرأة فى المسجد. اعتادت أنجريد أن تقدم محاضراتها للرجال والنساء فى المسجد. فى

أحد المرات طلبت من الرجال حمل مقاعدهم والجلوس عليها فى نهاية القاعة، أطاعها الرجال الذين لم يلبثوا أن اشتكوا عدم قدرتهم على سماع صوتها الرقيق. ابتسمت أنجريد ودعتهم للعودة إلى أماكنهم فى المقدمة، فقد كان المقصود درساً عملياً وضحت به مدى العزلة التى تشعر بها النساء عند جلوسهن فى بدروم المسجد أثناء الصلوات. أرادت أنجريد جذب انتباه الرجال إلى أهمية إعطاء المرأة الإحساس بالمشاركة وليس العزلة. من يومها خصصت مساحة للنساء إلى جانب الرجال يفصل بينها جدار خشبى يزدان بآيات القرآن.

كيف يمكن لمسلم أمريكى أن يحارب ضد دولة إسلامية؟، سؤال ألح على عقل ونفس "كريس أروين" خلال تواجده بقاعدة فورت ستيوارت العسكرية بولاية جورجيا، انتقل بعدها إلى العراق ليشترك فى الحرب التى أعلنتها أمريكا ضد نظام صدام حسين. كمسلم كاد كريس أن يتراجع أكثر من مرة عن الاشتراك فى الحرب، لكنه وجد نفسه يحتفل ذات يوم مع العراقيين بسقوط صدام مبرراً اشتراكه بأنه جاء لإنقاذ العراقيين أنفسهم، وربما كان هذا ما يبرر انضمام أقرانه اليوم فى صفوف داعش.

مر العديد ممن اعتنق الإسلام بتجارب روحية مؤلمة، بعضهم جاء من ضفة الإلحاد وآخرون عبروا أديان ومذاهب شتى بحثاً عن دين يجدوا فيه إله يحبهم ويحبونه، ودين يعتزون به فتتألق إنسانيتهم.

البحث عن الإسلام الصحيح فى بلاد سام وغيرها ليس بالأمر الهين. انتشر المتشددون والتكفيريون متخذين من كهوف تورا بورا فى أفغانستان قبلة. القاعدة صارت نموذجاً بالياً يهون البعض كوارثها أمام داعش. وضع المواطنين على المحك كفيل بانفجارهم ليصبح التعايش مع الآخر مفتاح السر فى وطن تتعدد فيه الأعراق والأديان.

جريدة الأهرام المسائى – ١٧ يوليو ٢٠١٥

اللصوص لا يقرأون

حقيبة، وجواز سفر. بوابات مرور. اختام. نركض بين صالات الانتظار. نرحل من بلد إلى بلد. محشورة صدورنا بالهموم والغيوم. مثقلةٌ عيوننا بالمطر. نجر حقائبنا وهزائمنا فى صمت. نقف بين انكسارات الزمان والمكان. مُنكسةٌ رؤوسنا. مُغبرةٌ جباهنا. كفت خيولنا يا سيدتى عن الصهيل وانكسرت سيوفنا. فى الفراق واللقاء أهرب من عينيك، أخشى شلال الأسئلة وعقم الإجابات. وبينما أنت تنتظرين فتحاً جديداً، ونصراً جديداً تزينين به جبهتك العالية أتوارى خلف الجرائد الملوثة، ألهث وراء استسلامى المهين، تحملنى الطائرة إلى بقاع غير البقاع، وأُناس غير الأُناس، حيث لكل مكان نكهته وخصوصيته، تماما كما أنت بطابعك المميز والحنون.

ما إن تطأ قدماك أرض مطار ما حتى تتجسد أمامك شخصية البلد. نظام. نظافة. التزام، ثقافة، أو غير ذلك. يعبر مطار شانجى بسنغافورة عن بلد يحتل أوائل المراكز المالية عالمياً. عرفها التجار فى رحلاتهم البحرية صوب الشرق الأقصى كمحطة للتبادل التجارى، ثم تعززت مكانتها مع النقل الجوى. أيضاً، انعكست أهميتها الجغرافية إبان الحروب العالمية. تصل مساحتها إلى نصف مساحة الجيزة، ٧١٣ كيلو متر مربع، وعدد سكان الأسكندرية، خمسة ملايين نسمة، وإجمالى دخل محلى يعادل ما تحققه المحروسة، ٣٠٧ مليار دولار سنوياً.

فى شانجى، تملأ الزهور الزوايا والطرقات، وتسيطر التكنولوجيا على الخدمات. شاشات تفاعلية، كاميرات، خدمات صوتية، ومنتجات تتفاوت فى تنوعها. وفى وسط المطار، تمتد طاولة خشبية يزيد طولها عن العشرين متراً، يعلوها أوراق، أدوات للرسم، كراسات تلوين، وألوان خشبية، وأخرى زيتية، يحيط بها كراسٍ للأطفال، يقضون عليها ساعات الانتظار، يرسمون أحلامهم، يعبرون عن امنياتهم، يعلقون بعضاً من إبداعاتهم البسيطة. رسوم تعبر عن تلقائية وفطرة مدهشة. ثقافات تتمازج وتتحاور فى هدوء. أطفال من كافة بقاع العالم أنسوا للمكان وأنِس بهم. يتمنون سكون الزمن وتوقف الأرض عن الدوران. تبث السماعات المنتشرة نداءات التذكير بمواعيد المغادرة والإقلاع، يجذب الآباء والأمهات أطفالهم. يقاومون. تدمع عيونهم. يتشبثون بأحلامهم وأوراقهم. ثم يمضون ملوية أعناقهم صوب آخرين ما زال أوان رحيلهم على قائمة الانتظار.

فى دبى يختلف الأمر، حيث تستشعر أنك فى مركز عملاق للتسوق يحيط به أسطول ضخم من الطائرات تنتظر انتهائك من رحلة الشراء حتى تُقلك إلى بلد آخر. الماركات العالمية من مستحضرات التجميل، الملابس، الأجهزة الإليكترونية، الإكسسوارات، المطاعم، حتى المرافق كالحمامات المزودة بخدمات فندقية حديثة، كل هذه الأشياء وغيرها تُشعرك أنك فى المدينة السوق. إعمالاً لمبدأ ما لا يدرك كله لا يترك

كله، نجحت دبى فى ترسيخ مفهوم من لم يستطع زيارة البلد يمكنه الاستجمام والتسوق بالمطار أثناء رحلات الترانزيت، لتخرج بتساؤل، إن كان هذا حال المطار، فكيف بالمدينة. أيضاً، تحول المطار إلى نقطة اتصال وانطلاق لأكثر من ١٥٠ شركة طيران ونحو ٦٠ مليون مسافر سنوياً إلى أرجاء المعمورة، أى أكثر من ستة أمثال المواطنين والمقيمين فى دولة الإمارات بأكملها.

على النقيض من ذلك، يأخذ مطار أبو ظبى مظهراً مغايراً، فرغم كثافة المسافرين والرحلات تستشعر أنك فى المدينة السكن، والمدينة البيت. تنتشر مكتبات صغيرة تضم تنوعاً من الكتب بعدة لغات تستقطب أولئك اللذين لا تجذبهم المحلات والمنتجات والماركات العالمية. إلى جوارى، دار حديث بين فتى يُمسك بكتاب فى التنمية البشرية وفتاة تقرأ رواية باللغة الإنجليزية. مالت عليه تسأله"هل يمكن للمسافرين أخذ الكتب معهم؟، فرفع وجهه مبتسماً وقال "اللذين يقرأون لا يسرقون، والذين يسرقون لا يحبون الكتب".

جريدة الأهرام المسائى – ٥ أغسطس ٢٠١٦

صورة

صورة ليست كملايين الصور التى تغمرنا صباح مساء. منذ شمر الوطن العربى عن ساعدية ورفع معاول الهدم والتقسيم والتشظى. منذ شد الأشاوس والبواسل والصناديد الأحرار المئزر وراحو يُخرِبون بيوتهم بأيدهم وأيدى أعدائهم، وما اعتبر أولى الأبصار. صورة تختلف عن كل الصور، حتى تلك التى لم تتحملها نفوسنا الهشة، فسارعنا بإغلاق شاشة تلفاز يعرضها فى تحد وصفاقة، أو طى صحيفة تناقلتها فى بَلادَة، مثلها مثل آلاف الصحف التى نسيت أن قُرائها من بنى البشر، فصارت تعرض على صفحاتها آخر الأخبار الرياضية، والسينمائية، وأحدث ابتكارات القتل والتدمير.

فى الرابع والعشرين من أغسطس الفائت نشرت صحيفة الشرق الأوسط على أحد صفحاتها الداخلية صورة لرجلين مسلحين، يقفان بين الأنقاض. فقط جدارين ظلا متماسكين، على أحدهما صورة قوس قُزح يتوسط سماءً زرقاء وشمساً مشرقة، ورسوم لأطفال تمرح وتلهو. بينما يوحى الرسم على الجدار الآخر، والذى يبدو جزء منه فى الصورة، أنه يُكمل القصة أو الصور التى امتلأ بها الجدار الأول، وبخط صغير كُتب أسفل الصورة "مقاتلان فى فيلق الرحمن، الفصيل الإسلامى المعارض فى ريف دمشق، يُشاركان بمعركة ضد قوات النظام فى بلدة جوبر". يا لهولِ الأسماء، فيلق الرحمن، والموت بين

أيديهم وأيدى من يقاتلون، بعد ما صار الجميع قتله محترفون.

من المؤكد أن الحطام حُطام مدرسة، وأن هذان الجداران بقايا فصل ربما لأطفال يدرسون بالصف الأول الإبتدائى أو حضانة على أغلب الظن. توقفت عند الصورة وأبت عيناى الرحيل. تتداعى الأسئلة، إبرٌ من نارٍ ودخان. هل دُمرت المدرسة أثناء يوم دراسى؟ تُرى كم طفلٍ قُتل؟، كم مدرسٍ قُتل؟ أين الصغار الآن؟ هل سكنوا القبور أم ما زالوا يتبادلون على شواطئ الوطن قوارب الموت التى ما نجا منها أحد؟ هل كان "إيلان عبد الله" الغريق أحد هؤلاء؟ هل كان "عمران" المُنتشل من بين الأنقاض فى حلب واحداً منهم؟. يا لسخرية الأقدار، الاسم عُمران والمكان أنقاض. تُرى متى ترى دمشق، وحلب، وحمص، وغيرها العُمران مرةً أُخرى.

ست سنوات عجاف، أكلت ما سبقها من سنوات سِمان. نصف مليون قتيل، لا بل شهيد. قتيلٌ أم شهيد، نختلف فنُعلن حرب جديدة، فتتناقل الشاشات صورٌ جديدة وكوارث جديدة. نَسىَ المواطنون الشوارع والمدن. نسوا بَرَدَى، نسوا الفرات ودجلة. نسوا الجامع الأُموى وما عادوا يذكرون سِوى الجنائز. نسوا قاسيون وما عادوا يذكرون سوى المقابر. نسوا الحَميدية وما عادوا يذكرون سوى بيع الحرائر. نسوا قلعة صلاح الدين وما عادوا يذكرون سوى صوت بَشار، والبغدادى، والصناديد الأشاوس.

إيه يا وطن، صار مادة للتسلية على شاشات التلفاز يقطعون بها رتابة الإعلانات والمسلسلات. إيه يا وطن، معجون ترابه بالدم المُهان. إيه يا وطن، لا تدرى شِمالك من يمينك. إيه يا وطن، احترف التشظى والتفتت والعويل. إيه يا وطن، باعه أبناؤه عند أول ناصية، وراحو يبكون عند الثانية، ثم أقسموا على تحريره من الطاغية. إيه يا وطن، أكل أطفاله بعد ما فقد رجاله، ثم راح يبكى ويستغيث. إيه يا وطن، يحمل أغراضه فوق رأسه، مطارداً، مهاجراً، بلا هويةٍ، ولا هدف. يستجدى كَسرة الخبز وشربة الماء. ومع هذا ترانا كل صباح، نبحث عن أشلائك، علَّنا نحفظها فى عيوننا، فلما عَزَّت نَزعنا القلب وأسكناك الصدور. إيه يا وطن، نُيمم وجهنا شطره كل صباح ثم نبتهل إلى رب السماء أن يحفظ الله الوطن. حَفِظَ اللهُ الوطنْ.

جريدة الأهرام المسائى – ٢ سبتمبر ٢٠١٦

الانتظار والنسيان

"نحن فى الانتظار"، عبارة عادة ما تنتهى بها الإعلانات التليفزيونية الاستهلاكية. من ناحية التسويق، تعطى العبارة جاهزية مقدم الخدمة لتلقى أمر التوريد من العميل والإيحاء بأن الأمر لن يستغرق أكثر من ضغطة بنان على رقم مختصر للهاتف. فى ساعات الانتظار، يقتحمك الملل وقلة الحيلة. تقطع الوقت بالقراءة، بالنظر إلى من حولك. تنشغل بأحاديث لا تسمن ولا تغنى من جوع. تتمنى انقضاء فترة الانتظار سريعا، وتأبى الدقائق والثوانى أن تغادر. يصبح للزمن مقياس خاص لا نطيقه. تُساءل نفسك فى حيرة، تُرى ما الذى يمكن أن يحدث إن خابت التوقعات. ثم سرعان ما تجذبك رغبتك فى الحياة إلى شط التفاؤل.

منذ مائة عام، اجتمع رجلان من دولتين كبيرتين بهدف تحديد مناطق نفوذ كل منهما. السيد مارك سايكس ممثلاً لبريطانيا، والسيد جورج بيكو ممثلاً لفرنسا. بمفهوم القوة، يرسخ الاجتماع وجود قوتين عظميين، فرنسا وبريطانيا. بحسب قاموس السياسة، لا يجب أن تتصارع القوتان الأكبر عالمياً، عليهما إدخار قوتهما لإرهاب الآخرين. فى هدوء، يتوسط الرجلان طاولة خشبية تتسع لأعضاء الوفدين الممتدين يميناً ويسارا. يتناولون قهوة فرنسية، تختلط نكهتها بدخان سيجار كوبى يعيد صاحبة إشعاله من حين لآخر. ينظران فى خريطة

تختزل مساحات عوالم قليلة الحيلة. يحدد الفرنسى بالقلم الرصاص مساحات تهمه. يَمُط الإنجليزى شفتيه، فيتدلى سيجاره حتى يوشك أن يمس الخريطة. يخط بقلم كوبيا خطوط أخرى. تتقاطع بعض الخطوط. يتبادل الرجلان النظرات والآراء. تتراجع خطوط، وتتقدم أخرى. تتحول التقاطعات إلى خطوط تماس. يرفع الرجلين نخب التوافق والانتصار. هكذا قُسمت كعكة الدول العربية فيما بينهما.

تأسست معاهدة سايكس-بيكو على قناعة أن هذه المساحات من الأرض ليست سوى هبة من الرب يُقسمها الأقوياء بحسب رغباتهم. يتوزع الشأن العربى بين عروبة تستعصى على التشكيل وخلافة عثمانية أشبه بالعباءة المهترئة، تُظهر أكثر مما تُخفى. بلدانٌ محتلة. فقرٌ وجهل وسياسة ترى أن الانتظار هو الاختيار الآمن، ونسينا أن من ينتظر يتأخر عن الركب.

أدى ما شهده الوطن العربى خلال العقود الماضية إلى تحوله إلى كتلة من هلام، طيعة على التشكيل والتلوين. هذه سُنة، وتلك شيعة، وأخرى كُردية، ورابعة علوية. شهدت أوربا حربين عالميتين، ويشهد الوطن العربى حرباً عالمية كل صباح. صار حلمنا، نشرة أخبار بلا قنابل، ولا صواريخ ولا قتلى. مللنا صحفاً تكتب تاريخ المجد العربى عبر انتصارات عربية عربية.

اليوم، ومع غياب منافس، يجلس السيد سام وحيداً خلف الطاولة،

متعالياً على الجميع. يَنكُتُ الأرض بمنسأته. يحرك قلمه يميناً ويساراً. تنفرط حبات المسبحة دويلات صغيرة، ضئيلة الحجم والقيمة. فى سوريا، والعراق، واليمن لا تقل مشاريع تقسيم كل منها عن إنتاج ثلاث دويلات لكل منها عِرقٌ ومذهب. فيما تتقن الدول العربية فن الانتظار، يتبارى المدعون برسم سيناريوهات مستقبل لا يعلمون حاضره، يحددون من يحل عليه الدور بعد قليل، يُقسمون من أى بقعة ينفجر سيال دم عربى جديد.

ما زلنا نرفض أن نتعلم من تجاربنا السابقة، ومن تجارب الآخرين، وكأن ما حدث ما كان. تعاود الدول العربية لعبة الانتظار وما ستسفر عنه سايكس – بيكو الجديدة. فى رائعته "أولاد حارتنا" يختم الأستاذ نجيب محفوظ (رحمه الله) كل قسم من أقسامها بجملة "آفة حارتنا النسيان". تُرى هل سلمنا الانتظار إلى النسيان، أم ألجأنا النسيان إلى الانتظار. لا أدرى، لكن المؤكد أننا نحترف النسيان والانتظار.

جريدة الأهرام المسائى – ٢٧ مايو ٢٠١٦

نفثة مَصْدور

مارى، فراشة مفتونة بالنور. تمضى نهارها بين الحقول والحدائق، وفى المساء تحوم مع رفيقاتها حول جذوة من نار لا تنطفئ. لمارى عقل وثاب متسائل. همست ذات مساء لإحدى صديقاتها "تُرى ما الذى تُخبئه النار فى جوفها". نظرت إليها نظرة تأنيب، ثم قالت "النجاة فى غلق باب السؤال". بعد عدة ليال طرحت مارى هواجسها على صويحباتها. نَفَرنَ منها، وبخنها. ليلة بعد أخرى، استولت على عقلها، ملكت كيانها. إلحاح قاتل يتملكها. ذات مساء، امتلأت عيناها الدقيقتان بوهج اللهب، لتندفع إلى قلب النار كسهم لا يحيد عن قَدره. عبثاً تتفادى هلاكها بسرعتها، لتنتهى القصة بتساؤل، "تُرى من عَرِفَ سر النار؟ مارى التى احترقت داخلها، أم صويحباتها اللواتى ما زلن يحمن حولها".

للمعرفة وهج وشبق. وهج يجذب إليه الفراشات الباحثات عن المعرفة والعلم. وشبق يمتلك النفس والعقل فلا تعرف منه خَلاصاً. شعرة دقيقة تفصل بين الهلاك والإدراك. الهلاك من عدم استنباط حدود علم لا تعرف عواقبه ليصبح المزيد منه دمار لبنى البشر. والإدراك لحدود المعرفة والوقوف عند آخر حبة رمل على شاطئ الممكن والمسموح. يقيناً بأن أوان التجاوز لم يأن بعد. على امتداد محطات قطار العلم، شهدت البشرية وقفات يأس سرعان ما تبدلت مع الجهد

إلى منصات أمل.

الجميل فى العلم، أنه بقدر التحصيل تتمدد ضفاف المعرفة. بالأمس امتلك الإنسان الأرض بعضلاته، ثم ما لبث أن اكتشف أن بناء العقل يعود عليه بما لم تستطع العضلات تحقيقه. قوة عضلية بائسة تتضاءل وإن عَظُمت أمام جبروت كائنات أخرى تشاركه الأرض والبحر والسماء. حبا الإنسان على رصيف مدينة العلم عبر أبجديات تتشابه والرسوم، تطورت بعد ذلك إلى ثريات من حرف مضفور مغموس فى أباريق من نور. رحلة تتابع جيلاً بعد جيل.

مُنحَ الإنسانُ العقل، ليكون جديراً بالخلافة على الأرض. تأرجح بين التعمير والتدمير. دائماً وأبداً تنهشه قوة طاغية، تدفعه فى اتجاه مخالفة المألوف والمتوقع. وبين هذا وذاك، تمضى الإنسانية على خيط من ثلج ونار. أُنساً وكُرها. قُرباً وبعدا. ألقاً وأرقا. قاس الإنسان مستوى تطوره بمقدار ما حل من طلاسم تحيطه ولا تغادره. بعدد ما فتح من مغاليق المستحيل، وأيضاً بشطحات جنون دمر فيها مُدناً. أمما. قمماً، وما انفك يبحث عن مزيد.

لنصل السكين استخدامات تتوقف على من يملكه. فى تقرير نُشر مؤخراً، تصدرت طائرات الدرون (طائرات بدون طيار) الأمريكية إحصاءات الخراب والدمار. أكثر من ٥٦٪ من القنابل والصواريخ التى أُطلقت عبر الجو فى سماء افغانستان قامت بها طائرات الدرون قياساً

بخمسة فى المائة عام ٢٠١١, فى هدوء تتحرك الحرب من مواجهة بين شخصين، إلى مواجهة بين الآلة والإنسان. فى الأولى، ربما تراجع الزناد خجلاً أمام سمو إنسانى، تعلو فيه المشاعر على الأحقاد. أما فى الثانية فالآلة تنفذ التعليمات أولاً بأول، وتنتظر المزيد. على العكس، رأت دُبى فى الدرون وسيلة فعالة لتوصيل البريد بديلاً عن القتل. المشروع وإن كان فى تجاربه الأولى إلا أنه فى طريقه للتنفيذ. يوماً بعد يوم تحتل الآلة مساحات أكثر فى حياتنا، بداية من صرف النقود وانتهاء بالحروب بالوكالة.

يقيناً أنها ستُبعث من جديد ككائن إسطورى يقبض بشفتيه على جمر الإنسانية، أمضى عمرى بحثاً عنها. محموماً أقلب ركام الأيام. تحترق أصابعى. تحنى الريح شجرتى. تسقط أوراقى. تجرفها الريح صوب النار. يعلو أزيزها. بينما أجلس أنا على شاطئ العمر منتظراً بعث مارى من جديد.

جريدة الأهرام المسائى – ٣ يونيو ٢٠١٦

الظِل

أخبرنى صديقٌ: فى أحد زياراتى إلى ألمانيا، دُعيت إلى زيارة مبنى البوندستاج "البرلمان الألمانى". مررنا عبر بوابات تفتيش إليكترونية. شرحت لنا مرافقتنا شيئاً من تاريخ المبنى العتيق. على أحد الحوائط دونِت اسماء من تولوا منصب المستشارية، وقعت عيوننا على حجر من دون اسم. تسائلنا. أجابت، إنه لهتلر، وقفت مآسيه حائلاً دون ذكر اسمه. ثم أردفت "قاد هتلر ألمانيا والعالم إلى دمار شامل، لو كان بإمكاننا أن نقتطع هذا الجزء من تاريخنا لفعلنا".

بعد جولة قصيرة، اخبرتنا بأننا نستطيع أن نتجول فى المبنى حيث شئنا. بينما انتشر الرفقاء، وقفت مكانى لا أعى كيف أتجول فى البوندستاج من دون رقيب. اقتربت منها. تلفت حولى متوجساً. همست لها: أتيت يا سيدتى من خلفية أمنية، ربما اتفهم سيرى وحيداً فى الشارع، لكننى لا اتخيل تجوالى فى مبنى رسمى من دون ظل ثقيل. نظرت السيدة نحوى بإشفاق، وبنفس النبرة همست، تأمين مبنى لا يعنى أن يلاصقك رجل شرطة، ثم رفعت عينيها إلى أعلى حيث ثُبتت كاميرات صغيرة فى أنحاء المكان، فحركت رأسى فى ارتياح وابتسمت، فرجل مثلى يسكن عقله المخبرون والمفتشون يصعُب أن يستشعر الطمأنية وحيدا.

جُبتُ المبنى، عبرتُ بوابات وسرتُ فى ردهات، هذه مكتبة، وتلك مكاتب أعضاء البرلمان مقسمة بحسب إنتماءاتهم الحزبية، وخلف هذا الزجاج المحصن يوجد مكتب المستشارة الألمانية آنجيلا ميركل. يتصدرُ نسرٌ عملاق القاعة الرئيسية، رمز ألمانيا الموحدة، ذلك الذى صممه العراقى الأصل، الألمانى الجنسية ريان عبد الله الموصلى، صاحب أكثر الشعارات شهرة: فولكس فاجن، آودى، بوجات وغيرها.

فى صمت ومنذ سنوات عديدة يُقَلْب الشرق على نار هادئة فى انتظار تمام النضج. ارتفع أزيز غليان القدور، وانفجرت بما فيها لتدرك النار أهل الدار ومن فى الجوار. فى هدوء، يتساقط لحم المدن العربية قطعةً قطعة. تمتد ألسنة النيران عبر الحدود، تكتوى أوربا بإرهاب أعمى، يرى انتصاراته فى غزوات مباغته على العُزل. باتت أوربا تفتش فى أصابعها وأصابع من يمدون أيديهم إليها عن طلقة رصاص أو نصل خنجر. بينما فى الضفة الأخرى ينبشون العقول بحثا عن أفكار ممنوعة ليصادروها والعقول.

وحدى ووجهى العربى نواجه رجل الشرطة فى قسم الجوازات بالدولة الأوربية. يُنَقِلُ الرجل عينين رماديتين بين وجهى المتعَب وجواز السفر. يُقلبُ صفحاته فى هدوء. بلطف، أفهمته أن طبيعة جواز سفرى تعفينى من الحصول على تأشيرة دخول. أعاد الرجل النظر فى الأوراق، وضع ختم المرور وسلمنى الجواز فى كسل. لم أخط خطوات

حتى استوقفنى آخر، أظهر بطاقة الشرطة، وطلب أن اتبعه جانباً. بعد بضعة أسئلة روتينية ونظرات ارتياب احترافية، أخذت أوراقى، وحقيبتى، ووجهى العربى المشبوه ومضيت انتظر محطات توقيف أُخرى.

هنا وهناك. تنتشر عيون الكاميرات، تتابعنا، تسجل سكناتنا وحركاتنا، ينتشر رجال الشرطة والجيش مدججين بالسلاح والعتاد. فى الشارع. فى المقهى. فى المسرح. فى المتحف. فى المترو. للمرة الأولى استشعر قلق أوربا. أسمعُ أنفاسها المتوترة. تُرى، هل أحست بما يعانيه العرب. هل أدركت أن النار إذا ما اندلعت أكلت أبنائها والجيران.

"ملامح صارت مشتركة بين الشرق والغرب. أيضاً، أصبحت وجوهنا العربية مشاريع اتهام"، عقب صديقى فى أسى. مرت لحظات صمت متبادل. نظرت خلفى، فإذا ظل ثقيل يرافقنى. تنهدت فى ارتياح، ثم تمتمت "الحمد لله، لم أفقد ظلى بعد".

جريدة الأهرام المسائى – ٢٠ مايو ٢٠١٦

جعفر التائه

نشأ جعفر يتيماً فى كنف جده، ومع هذا تمرد عليه وتزوج راعية غنم رغم أنفه، فطرده غير آسف. اضطربت حياته وعجز أن يستقر فى عمل. انفصل عن زوجته وعمل فى فرقة غنائية. تزوج من سيدة ثرية وعاش عالة عليها. فى بحثة العابث عن شخصية مستقلة انبهر جعفر بالقضاة ومكانتهم فى الدولة، فقرر دراسة القانون، ثم لم يلبث أن زهده. أُعجِبَ بالمفكرين، فاعتزل الناس وانكب يسجل ما اعتبره نظريات فلسفية فى كتاب قدمه فى حفل كبير انتهى بتورطه فى جريمة قتل. زادته سنوات السجن ارتباكاً ونفوراً من المجتمع، لتمضى أيامه فى رحاب تيه لا تبدو له نهاية. جعفر الراوى هو بطل رواية قلب الليل للأستاذ نجيب محفوظ (رحمه الله).

يظل البحث عن شخصية مستقلة محددة المعالم والصفات هو عصب حركة الأفراد والمجتمعات. نتحرك فرادى بحثاً عن ذواتنا، فتتشكل سمات الوطن. نمر بدورات متعاقبة من الهبوط والصعود. أحياناً نستسلم للهبوط، وأحياناً أخرى نفيق لنبدأ الصعود داخل الهبوط، ثم نتباهى بتقدمنا. محطات رئيسية تختلف فى مراحل العمر وتتفق فى الصعوبات، التحديات، الإنكسارات، وأحياناً الانتصارات. بحسب القدرة على التنبوء بالمستجدات والتوائم معها يتحدد إطار التعايش، وتتفاوت نظرتنا للأمور بمرور الزمن.

للشخصية الإيجابية أركان وأسس برع علماء التنمية البشرية فى صياغتها لتُصبح منهاجاً لأولئك الباحثين عن شخصية مؤثرة، تسعى من نجاح لآخر، قادرة على مجابهة التحديات، واستخلاص الخبرات من النتائج السلبية. من هذه الأركان، امتلاك رؤية واضحة للأهداف سواء كانت قصيرة أبو بعيدة المدى. ولأن الأهداف تَبعُد وتقصُر بحسب همتنا واجتهادنا، صارت المداومة على التمسك بها والسعى تجاهها ركناً رئيسياً، نسعى إليها مزودين بعادات إيجابية فعالة تمتلك زمام وأدوات التواصل مع البيئة المحيطة، بما يمكننا من وضع خطط تتسم بالمرونة والديناميكية والقدرة على استيعاب المتغيرات المتوقعة والطارئة.

جعفر الراوى شخصية نقابلها كل يوم بلباس جديد، واسم جديد، وأحياناً تفاجئنا فى مرآة ذاتنا، لنكتشف أننا نعيش فيها، وتعيش فينا. لا أعرف ماذا يريد جعفر، كل يوم يفاجئنى بألف ألف اتجاه وقرار. وبنفس مستوى تمكنه من اتخاذ القرارات بسهولة، يتخلى عنها أيضاً بسهولة. احتَرف التمنى والنسيان، القوة والعجز، الغنى والفقر، الحب والكره، النجاح والفشل. دقيقةٌ هى المسافة بين متناقضاته، حتى أنه ما عاد يدرك فواصلها. تتبدد أحلامه كسحابات صيف فيتتبعها بعينين محايدتين باردتين. السير على وتر مشدود بين جبلين يبدو أقل إثارة من تقفى آثار أفكار جعفر الذى ما زال يرسم ابتسامته الواثقة

معلناً للمرة الألف عن تحول فى حياته جديد. يَعِد كأنه لم يعد من قبل. يعيش سراب المستقبل وينسى حاضراً صعبا. لكم أنت بائس يا جعفر، ما زلت تمارس مهارة الانتظار، وتأبى الأيام أن تستجيب.

مصلوباً على قوائم حيرتى وقلة حيلتى. مشنوقاً فى خيط دموعى. منكسرةٌ عيونى. منكسةٌ رأسى بثقل همومى. منخفضةٌ جبهتى. ثقيلةٌ خطوتى. فارغٌ فؤادى. أتجول منفرداً فى أدغال المتناقضات غير عابئ بالمخاطر والتحولات المباغته، فأعود بخزى العمر وغضب السنين. على الجانب الآخر، ما زال جعفر على عهده، يؤكد بعد كل إخفاق أنه ضحية من استغلوا وحدته وكثرتهم، نزاهته وغدرهم. كم أنت هادئ وهادر، ساكن وعاصف، صعب توقع ما تأتى به. أردد بينى وبين نفسى "لا تفرغ جُعبتك من الأعذار والأسباب يا جعفر"، ثم تغلبنى دموعى، فأتمتم "اللهم اهد جعفراً".

جريدة الأهرام المسائى – ١٢ أغسطس ٢٠١٦

تحت نعليك

وقعت بين يدى نسخة من رواية "الخيميائى" لباولو كويلو. من السطور الأولى، تكتشف أنك أمام سرد فريد يقترب من سبحات المتصوفه، وشطحات الصالحين، ورموز العارفين. كتابة أقرب لروح الشرق منها إلى أمريكا اللاتينية. عاش باولو فترة من حياته فى إسبانيا، تأثر فيها بالتراث العربى فى الأندلس واستلهم البعد الروحانى فى دراسته للديانات والمذاهب المختلفة.

تبدأ أحداث الرواية بالشاب سانتياجو راعى الأغنام فى الريف الإسبانى، وتردده –مثل باقى الرعاة– على أطلال كنيسة لينام فيها مع أغنامه قرب شجرة جميز. لليلتان متتاليتان يرى الفتى نفس الحلم الغامض بتفاصيله. نظرت العَرَافة فى عينيه طويلاً، ثم أخبرته أن كنزاً ينتظره بالقرب من سفح الهرم. رداً على نظرة الاستنكار فى عينيه رفضت تقاضى أجر على أن يكون لها عُشر الكنز. قابل رجلاً غريب الأطوار، أدعى أنه مَلِك سالم، نظر فى عينيه وقرأ له ماضيه والكنز المنتظر وتقاضى منه عُشر قطيع أغنامه.

باع ما تبقى لديه من أغنام، وعبر البحر إلى جزيرة سبتة حيث سَرق مُحتال ماله فلا هو يستطيع استكمال رحلته ولا العودة إلى إسبانيا. عَمِل فى محل لبيع البللور وأظهر مهارة أدت إلى ارتفاع

المبيعات وحصوله على دخل مرتفع، فنسى كنزه. من حين لآخر، ترن فى أذنيه كلمات ملك سالم "عندما تريد شيئاً بإخلاص، تولد هذه الرغبة فى روح الكون. لا تتخل أبداً عن أحلامك، وانتبه إلى الإشارات".

الكون روح واحدة ترسل العديد من الإشارات حتى نفهم، فكل ما تراه يتحدث إليك ليتوقف الأمر على مدى فهمك لتلك الإشارات. تجددت رغبته فى البحث عن أسطورته الشخصية (الكنز) فالتحق بقافلة أخذت طريقها فى الصحراء صوب مصر. علمه الطريق كيف يتأمل، وكيف يقرأ الرمل والنجوم والسماء.

بسبب الحرب تضطر القافلة للتوقف بواحة الفيوم، حيث يلتقى فاطمة التى تمنحه الحب ويراها أغلى من كنزه المنتظر، فتحثه هى على الرحيل صوب أسطورته الشخصية. تربت فاطمة على أن نساء الصحراء خُلقن لينتظرن عودة رجالهن.بفهمه للإشارات، يُجنب الواحة خطر هجوم الأعداء عليها، فيكتسب مكانة ومهابة. يلتقى الخيميائى (العارف بالأسرار العظيمة) فيقربه منه ويشجعه على مواصلة السعى نحو كنزه.

للمرة الثانية يفقد كل ماله، فيساعده الخيميائى بقطعة ذهب، ويؤمن له طريق الوصول إلى الهرم، ويودعه. يُكمل سانتياجو ما تبقى من رحلته وحيداً. وعند سفح الهرم تقع عينيه على خُنفساء، يفهم

الإشارة، هنا موضع الكنز، يحفر ما تبقى من نهار ويكمل طوال الليل، كلت يداه وما تزعزعت ثقة قلبه فى اقترابه من كنزه. تصطدم يداه بحجر، يرتفع حماسه، يحفر، يغشاه ظل رجلين ملثمين. يسلباه كل ماله، يضرباه، يسألاه عما يفعل. يحكى لهم عن حلمه، عن الغجرية وتفسيرها، عن ملك سالم وروح الكون، عن الخيميائى ولغة الإشارات. يضحكان ويسخران من رجل يمشى خلف أحلامه. وبينما يهم أحدهما بركوب فرسه يخبره أنه رأى لأكثر من ثلاث ليال حلما بأنه يسافر إلى ريف إسبانيا، حتى يصل إلى كنيسة مهدمة فيستخرج من تحت شجرة جميز كنزا كبيراً. يضحك الرجل الذى استوى على حصانه ناصحاً أياه بألا يمشى وراء الأحلام حتى لا يهلك. هنا يبتسم الفتى، ويردد فى نفسه "وجدت الكنز .. وجدت الكنز"، ويأفل عائداً إلى قريته الإسبانية. سفر وبُعاد، أسى وغياب، وبعدها يكتشف أن كنزه يكمن حيث كان. تُرى كم منا احتاج أن يصل إلى آخر نقطة فى العالم ليعلم أن كنزه تحت نعليه.

جريدة الأهرام المسائى – ٣٠ ديسمبر ٢٠١٦

غداً تغردُ العصافير

تمتد الصحراء فسيحة، منبسطة، مكشوفة، وقاسية، تتقاطع فى كثير من المناطق مع سلاسل جبال تفرض طبيعتها الصخرية وحشَةً فى النفس وثِقَلاً على القلب. أُناسها بسطاء، تجمعهم محبة وصفاء نفس. كرماء، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. متواضعون، حتى وإن كانوا أصحاب فضل. عُمان، وطن يفرض حضوره وسماحته. دائماً وأبداً لعمان مواقف لا تُنسى.

أوائل السبعينات من القرن الماضى، تولى السلطان قابوس بن سعيد شئون الحكم خلفاً لوالده. ورثَ بلداً أغلب أبناؤه أميون. ثلاث مدارس إبتدائية هى كل ما تملكه السلطنة فى ذلك الحين. بنية تحتية تُختصر فى عدة كيلومترات من الطرق المعبدة الصالحة للسيارات. عدا ذلك، ينم المشهد عن طبيعة جبلية، وموارد طبيعية تتكشف على استحياء وإن بدت قليلة بالمقارنة بجيرانها فى الخليج العربى. "أَنَّى لهذا البلد أن يتطور"، سؤال يؤرق ذهن الحاكم.

أدرك السلطان، أن تقدم عُمان مرهون بالتعليم. لا تقدم، لا حضارة، لا رقى دون علم. عندئذ، أطلق السلطان عبارته الشهيرة "سنتعلم ولو تحت الشجرة"، ليؤسس بها منهجاً للتحدى، أصبحت به قاعات المنازل، الحقول، حتى الشوارع مدارس للأطفال. فى ذلك

الوقت، كانت المحروسة –رغم جراحها– نوارة الدنيا. الأخ الأكبر لكل بلاد العرب. انتشر المدرسون المصريون فى أرجاء السلطنة ينشرون العلم ويؤسسون لنهضة تمتد فى السهل والجبل، فى الريف والحضر. حيثما وجدَ الأطفال وجدَ المعلم المصرى. تحت الشجرة دق جرس المدرسة. تعلم الصغار حروف الأبجدية، رسموا مدناً تزدهر مع كل طلعة شمس. تحت ظل الشجرة كَبُرَ الصغار. خُطِطَت السلطنة على أحدث الطُرز. ويوماً بعد يوم، تتألق عُمان، تشرق شمس الأمل من أفق المستقبل، تنزاح العتمة والجهل.

لا يذكر العُمانيون كلمة مصر ولا المحروسة وإنما يقولون "أم الدنيا". فى البداية ظننت أنها لا تعدو أكثر من مجاملة ضيف عابر، إلا أن احتكاكى برجل الشارع أكد أنها يقين فى القلب. سائق التاكسى، البائع، عامل المقهى، ضابط الجوازات، كلهم يقول "أم الدنيا" عندما يعنى مصر. لا ينسى العُمانيون أولى الفضل من المصريين، أولئك الذين شاركوهم شظف العيش وبناء دولتهم الحديثة. شَكلوا قوة مصر الناعمة. قوة قوامها مدرس، ومحاسب، وطبيب، وصانع، ومهندس. قوة امتلكت بها مصر قلوب العرب فأعلوا شأنها وقيمتها.

اليوم، تبحث أم الدنيا عن أولئك الأوائل الذين عمروا بلاد العرب. حولوا رمالها تبراً، وفراغها عُمراناً، وصحرائها مدناً زاهرة،

وشوارعها مقصداً للزائرين. نمشى فى شوارعنا غرباء، تصدمنا القمامة، والضجيج، والسباب، والعشوائيات. تنتشر مدارسُنا فى كل شارع فأين الطالب والمعلم. جامعاتُنا فى كل حى فأين العالِمَ. أنشغلنا بمن حولنا عن أنفسنا، فتاهت معالم الطريق. أصبحت بلاد الخليج حلماً نسعى إليه، بعد ما كنا حلما يسعوا إليه. غاب العلم فتقدم الجهل.

المحروسة شلال خير لا ينضب. يأتينى صوت الأستاذ خالد محمد خالد –رحمه الله– مردداً عبارته الشهيرة "غداً تُغرد العصافير". يأتى طفلٌ صغير، يشبُ بقدميه، يدق جرس المدرسة، يدب الأمل فى خلايا الجسد الخامل. تمتد ألف يد تحملُ كلٌ منها قنديلاً. تتراجع العتمةُ فى يأس، مصلوبة على الحيطان بلا حيلة، تزوى، تتلاشى. أبحث عن وجوه أساتذتى، فيطالعنى ألفُ ألف وجه باسم. يعلو صوت الأطفال مردداً نشيد "بلادى بلادى"، فأتمتم "غداً تُغردُ العصافير".

جريدة الأهرام المسائى – ١١ مارس ٢٠١٦

حـاشيـة الأمـير

"يا سـيـدى، أنت الأحق بالحكم، أين حكمـتك وصـواب رأيك مما يفعله أخيك حسان، مُلك اليمن يهتز ويرتج، أنت منقذ اليمن" بمثل هذه الكلمات أوحت حاشية عمرو بن تبان له بقتل أخيه حسان ملك اليمن وتوليه الحكم. ألح عليه جميع من حوله إلا رجل يُدعى "ذى رُعين"، أبى عليه ذلك ونهاه عنه، فلما رأى إصرارهم ونية عمرو تنفيذ ما يريدون أتاه بصحيفة من جلد غزال مختومة، واستحلفه أن يحفظها بخزينته وألا يفتحها إلا بإذنه، ففعل عمرو.

وقع عمرو فريسة سهلة فى شَرك الإغواء، رغبه محمومة فى المُلك وتحريض حاشيته له، فطوعت له نفسُه قتلَ أخيه، فقتله، فأصبح من الخاطئين. تولى الحكم، وما أن انفضت احتفالات التنصيب، وغادر المهنئون حتى أفاق من فعلته، يؤنبه ضميره ليل نهار حتى امتنع عليه النوم وآنسه السهر والأرق. شكا عمرو حاله لخُلصائه، لم تُفلح العقاقير، ولا الأعشاب، ولا الليالى المِلاح. أرقٌ على أرق، حتى أوشك أن يفقد عقله. أسر بحاله إلى أحد الحكماء، فأخبره أن ما من شخص قتل أخاه إلا وحُرم النوم. ارتاع عمرو وجُن جنونه، وأخذ يتحين الفرصة للفتك بمن أشار عليه قتل أخيه، فقتل من قتل.

وذات يوم، رفع سيفه على ذى رُعين فصرخ فى وجهه طالباً

الصحيفة التى أودعها إياه. "أى صحيفة تلك؟"، سأله عمرو مشككا، فذكره بها، فأحضرت، فطلب منه ذى رُعين أن يقرأ، فقرأ: "ألا مَنْ يَشْتَرِى سَهَراً بنَوْم / سَعِيْدٌ مَنْ يَبِيتُ قريرَ عَيْنِ / فأما حِمْيَرٌ غَدَرَتْ وَخَانَتْ / فَمَعْذِرَةُ الإِلهِ لِذِىْ رُعَيْنِ". صُعِقَ عمرو لدى سماعه بيتى الشعر، تداعى جسده، سقط سيفه، الآن يبكى ولسان حاله يقول، من يشترى مُلكاً بنوم.

حاشية عمرو، هم مستشارو اليوم، المساعدون، أهل الثقة، أصحاب الرأى، البِطانة، أهل الحل والعقد، النخبة، يحتاجهم كل مسئول وكل صاحب قرار. قدرة المسئول على الاستماع إلى الكافة، ضم خبرات متنوعة ومتباينة، قدرته على التحليل والنفاذ إلى الحقائق عبر ما يسمع ويرى، وأخيراً اتخاذ القرار وتحمل مسئوليته تحدد دور مستشاريه. هم عيونه التى تقرأ، وقدمه التى تسعى، ويده التى تكتب، وتبطش، وربما تحنو. للحاكم، تحدد الحاشية مستوى ثقة شعبه به، فمتى ضمت رجال أزمات، مخلصين، شرفاء، مترفعين عن المفاسد إطمأن الشعب ووقف خلف قائده يسانده ويشد من أزره.

فى مجتمعات الشك، وتحت مبدأ "الآخرون هم الجحيم" كما يقول جان بول سارتر، يُقصى الأمير مستشارو سلفه، مُضحياً بكل ما يملكون من خبرة، ومستبعداً فكرة الموائمة فى الإبقاء عليهم وضم آخرين من أهل ثقته، ليبقى قرار استبعادهم مرتبطاً بأدائهم لا

بانتمائاتهم. فى مجتمعات القبيلة، تتحول الحاشية إلى فِرق تتحد بوصلتها تبِعاً لاهتماماتها، ومن ثم يصبح المجال أكثر تأهباً لصدامات داخلية تلقى بآثارها على أداء الأمير ومصداقيته لدى شعبه. فى المجتمعات الهمجية، تضم الحاشية قتلة محترفون، يبيعون ويشترون طبقاً لأهوائه مطمئنين إلى فتاوى وأحكام يُعدها فقهاء قانون بارعون فى موائمة المخالف ومخالفة الملائم، مطمئنين إلى سطوته، وإلى شراسة كلابه يوجهها تجاه كل صاحب رأى مخالف. وهناك أيضا حاشية تقدم نفسها بنفسها إلى الأمير، عبر أبواق التلفاز والصحافة والإعلام، يُسبحون بمجده، وصواب رأيه، وبُعد نظره، ودقيق حكمته آناء الليل وأطراف النهار.

أنماط عديدة تتشكل منها طبيعة الحاشية، تُلونُها، تصبغها، ليظل ذى رُعين كالماء بلا لون، ولا طعم، ولا رائحة. قبلته وطنه والإخلاص فى النصح. روحاً تتألق، وقبساً يهدى حتى بعد إقدام عمرو بن تبان على قتله.

جريدة الأهرام المسائى – ٩ سبتمبر ٢٠١٦

اغتيال الأمم

هناك أفراد يغتالون أفراداً، وآخرون يغتالون أمماً بأكملها. يختلف مفهوم الاغتيال طبقا للغرض. هناك اغتيال سياسى، وآخر اقتصادى، وبحسب التخصص يعمل محترفو الاغتيال. اغتال حكام بلادهم. حولوها إلى خرائب. قادوها من علم إلى جهل، ومن شعار إلى شعار، ومن حرب إلى حرب. اغتال هتلر ألمانيا، واغتال ستالين إيطاليا، كما اغتال كل طاغية بلده. يقول الشاعر العراقى عبد الوهاب البياتى: ثورات الفقراءْ. يسرقها، فى كل الأزمان، لصوص الثوراتْ.

يعرف جون بركنز نفسه بأنه قرصان اقتصادى بدأ عمله عام ١٩٧١. تلقى تدريبه على يد قرصانة محترفة بأحد مكاتب الاستشارات المالية العالمية. أخبرته منذ اللحظة الأولى أن من حمل لقب "قرصان اقتصادى" لا يمكنه التراجع أو الانسحاب إلا إذا قرر مستخدموه ذلك.

يقتضى العمل كقرصان اقتصادى تقديم استشارات للدول النامية تحت غطاء تحسين وضعها الاقتصادى ومساعدتها فى التحول إلى دولة ناهضة مثل سنغافورة، والصين، والبرازيل. القروض ذلك الطُعم السحرى. تبحث عنه الدول النامية وتمتلكه المتقدمة وتديره المؤسسات العالمية بحسب توجهات القوى الاقتصادية الكبرى. تتحدد مهارة القرصان بما تحصل عليه الدول من قروض. نعم اللصوص مستويات وتخصصات.

وعلى سيرة القرصان، يذكر التاريخ الأمريكى القرصان الأشهر "مورجان"، فعلى غير عادة القراصنة لم يشغل مورجان نفسه بالسطو على سفن المسافرين المدنيين، بل انشغل بتعقب سفن القراصنة أنفسهم، ينتظرها عائدة من رحلات القرصنة، محملة بخيرات السفن، وببحارتها المجهدين والجرحى من عناء السطو والحرب، فتكون النهاية المحتومة لصالحه. اكتسب مورجان سطوة وسمعة سبقته إلى مكامن أعدائه، فسهلت عمليات قرصنته. تحولت ثروة القرصان فيما بعد إلى رأس مال أحد أكبر البنوك الأمريكية تحت ذات الاسم. على حد قول الأستاذ محمد حسنين هيكل يترجم نمط مورجان أسلوب الإمبراطورية الأميركية فى بناء ثروتها وقوتها.

قراءة كتاب "الاغتيال الاقتصادى للأمم" والصادر عن مكتبة الأسرة، أشبه باعترافات أحد الخاطئين بين يدى قسيس. ولأن نكوص قرصان عن أداء عمله قد يكلفه حياته، يبدو شروعه فى سرد تاريخه وعرض أسراره خيانة عظمى. تلقى الرجل تهديدات عدة، كانت كفيلة بإثناءه عن الكتابة، إلا أن ابنته خاطبته فى هدوء "لا تخف. إن حدث مكروه سأكمل أنا". تشجع جون فأخذ يعرض على قارعة نواصى الورق أسرار دول ودسائس اقتصادية انهكت دول لا تجد قوت يومها.

يؤدى غرق الدول فى الديون إلى خضوع قادتها لمصالح القوى العظمى. لتتولد من رحم هذا النظام احتكارات فى شتى المجالات، فى

الطاقة، والصناعة، والمكاتب الاستشارية، وغيرها. فى ردهات الشركات العالمية يمارس القراصنة عملهم تحت ألقاب تعزز مكانتهم. من بنما إلى إندونيسيا إلى السعودية فإيران وغيرهم توزعت مهام القرصان وقيست نجاحاته بمقاييس عمله كقرصان وليس كخبير اقتصادى مهموم بإقالة عثرات الدول النامية وتحسين معدلات نموها الاقتصادى.

تأسست منظمة أوبك فى سبتمبر ١٩٦٠ بمبادرة من السعودية وإيران والعراق والكويت وفنزويلا كرد فعل للتصدى لاحتكار شركات النفط العالمية الكبرى التى اجتهدت فى خفض أسعار النفط لتتأثر سلباً عائدات الدول المنتجة. فى بدايات السبعينات استطاعت أوبك تركيع الشركات الصناعية الكبرى. كان عام ١٩٧٣ فارقاً على الصعيد السياسى بانتصار مصر على إسرائيل، والاقتصادى ببروز الدور المؤثر للنفط العربى فى توازن السوق العالمى.

حدث هذا فى وقت كانت فيه أمريكا تسترجع فشلها فى حرب فيتنام، والرئيس نيكسون يترنح تحت تبعات فضيحة ووتر جيت. ترك روبرت مكنمارا منصبه كوزير دفاع فى الحكومة الأمريكية إلى منصب رئيس البنك الدولى. أدت صدمة البترول إلى تحالف الشركات الصناعية الكبرى والبنوك الدولية والحكومة الأمريكية ومن جهة أخرى امتلأت خزائن الدول المنتجة للنفط. أعقب ذلك مباشرة بدأت المفاوضات الأمريكية مع دول الخليج فى مقايضة مقابل النفط

بمساعدات تقنية وتدريبات عسكرية. لم يعد للقرصان عمل عليه أن يتحول إلى ثعلب يحول الأزمة إلى مصدر نعمة. فى هذا الوقت، دخلت شركته كاستشارى اقتصادى فى هذه العمليات، استطاع جون من خلالها فتح الباب أمام كل ما هو أمريكى بدءً من أحدث وسائل تربية ورعى الأغنام إلى تحويل النفط إلى منتجات صناعية وعمرانية ضخمة. استخدمت السعودية كنموذج تراه الدول ينمو وتتمناه زعماء العالم فطلب خططاً مشابهة لمساعدة بلدانهم. تطور حجم أعمال الشركات الأمريكية إلى مستويات لم يتخيلها أحد. نجح الثعلب وأعوانه فى تحويل كارثة النفط إلى مصدر هائل للثروة الأمريكية.

فى ذات العام أطاحت المخابرات المركزية الأمريكية بسلفادور الليندى رئيس شيلى المنتخب فى إشارة إلى قوة الإمبراطورية العالمية. كانت هذه هى الطريقة التى تتبعها الولايات المتحدة عندما يفشل القراصنة فى تطويع اقتصاد بلد ما، وعندما يخيب مسعى الثعالب فى تطويع الأزمات لصالح الاقتصاد الأمريكى، حينها يصبح التدخل العسكرى حتمياً، تماما كما حدث بعد ثلاثين عاما فى العراق، منحت على إثره الشركات الأمريكية أكبر عقود إعادة الإعمار، وتولت أمريكا سداد قيمة هذه العقود من عائدات بيع النفط العراقى نيابة عن العراقين أنفسهم !!.

جريدة الأهرام المسائى – ٥ يوليو ٢٠١٤

اقتصاد دوت كوم

قدم آدم سميث فى كتابه "ثروة الأمم" لنظرية قدرة السوق على تنظيم نفسه تأثراً بعمليات العرض والطلب. بحلول الكساد أواخر عشرينيات القرن الماضى فقدت النظرية صلاحيتها. دعا كينز إلى تدخل الدولة والعمل على تحريك السوق بإنشاء المشروعات بهدف إيجاد طلب ينمو معه الاقتصاد. فى ذلك الوقت عملت الأسواق بمعزل عن بعضها البعض. اليوم، تفوق هيمنة الاقتصاد العالمى سلطة الدولة ليصبح المحك مستوى براعة الدول فى الموائمة بين الفرص والتحديات.

فرضت استاتيكية الاقتصاد القديم أن نسعى إلى الأسواق ولا تسعى إلينا. الآن صارت الأسواق أكثر ديناميكية وقرباً من المستهلك. بتطور نظم الاتصالات والبرمجيات تحولت البضائع إلى منتجات رقمية نتناقلها عبر فيض معلوماتى، ومن الثروة المرتكزة على ملكية أصول مادية إلى أخرى إليكترونية.

فى الأسواق الافتراضية يكتفى بضغطة خفيفة على زر صغير للتجول وفحص المنتجات. نقارن. نشترى. نستبدل. تنتقل نقودنا إلى حسابات التجار. تشير أحد الإحصاءات إلى تخطى حجم التجارة الإليكترونية العام الماضى الواحد تريليون دولار، مرتفعاً ٢٠٪ عن العام السابق، ينتظر زيادتها نصف تريليون أخرى خلال الأعوام

الثلاث القادمة. اختزلت المسافات فانتقلت المنتجات من أرفف المحلات العالمية إلى القرى والنجوع. تلاشت الحدود افتراضياً واشتعلت الصراعات على الأرض.

بنحو ٢٣٨ مليار دولار تتصدر أمريكا قائمة أعلى ثلاثين سوق إليكترونى متقدمة على الصين، وانجلترا، واليابان، وألمانيا. عربياً، فى صمت لحقت السعودية بالقائمة تاركة الصيت لدبى. عادة تتبدل المراكز بين الصين وأمريكا. تقديم الخدمات العابرة للحدود بجودة عالية وتكلفة منخفضة تحقق مداخيل مؤثرة لاقتصاديات الهند، كوريا، الصين، سنغافورة، هونج كونج، وغيرها.

تعد شركة أمازون ركيزة الاقتصاد الإليكترونى الأمريكى. بدأت منتصف التسعينات ببيع الكتب وسرعان ما تمددت فروعها، وتنوعت سلعها، لتشارك بحوالى ٣٠٪ من عائدات السوق الأمريكى. ومع أن خمس سنوات فقط مضت على إنشاء شركة "على بابا" الصينية، إلا أنها حققت أرباحاً بلغت ١٢ مليار دولار هذا العام. تقريباً ضعف ما حققته الدول العربية مجتمعة، ٧ مليار دولار. تمنح أرباح الشركات الاقتصاد الوطنى قوة. لذا تمهد السياسة والسلاح الطريق لحصول الشركات الكبرى على المزيد من العقود.

فى مصر، يستهدف الوصول بحجم التجارة الإليكترونية إلى ٢,٧ مليار دولار عام ٢٠٢٠، أى ضعف المحقق حالياً. الإليكترونيات هى

الأعلى مبيعاً يليها تذاكر الطائرات، القطارات، وغيرها. ٤٠ مليون مصرى يستخدمون الشبكة العنكبوتية يمثلون رصيداً قيماً لراغبى الاستثمار فى التجارة الإليكترونية. يكمن العائق الرئيسى فى اهتمامات زوار الشبكة، فقط ٤٪ يفضلون الشراء إليكترونياً.

فى الكثير من الدول تحول قطاع التجزئة إلى واجهات إليكترونية جذابة للمنتجات المكدسة فى المخازن. للتجارة الإليكترونية مقومين رئيسيين، مقدم الخدمة والعميل. تأهيل أجيال قادرة على تقديم أعمالها وخدماتها عبر البوابات الإليكترونية مع بنية معلوماتية قوية يخلق فرص عمل ويساند الاقتصاد. على الجانب الآخر، يرغب العميل فى معرفة ما تقدمه السوق والإطمئنان إلى شفافية التعاملات وتميزها.

فى ذات الصدد، مازال التعريف بالخدمات الحكومية الإليكترونية محدوداً تشهد بذلك ساعات الانتظار أمام نوافذ البيروقراطية طلباً لتجديد رخصة قيادة، أو شهادة ميلاد، أو خدمة أخرى. أغلب المواطنين لا يعلمون شيئاً عن جهود حكومية تستحق التقدير، حولتهم برامج الصخب المسائى إلى نقاد أكثر منهم مشاركين. مد مظلة الخدمات الإليكترونية إلى قطاعات أخرى ضرورة كما أن التعريف بها فريضة. يقيناً أن بناء اقتصاد الوطن يتسع للجميع.

جريدة الأهرام المسائى – ١٦ أكتوبر ٢٠١٥

آت

شاب بسيط قاهرى النشأة، نزل أحد قرى جنوب مصر للعمل ناظراً لمكتب البريد. فى رتابة، تمضى حياته بين خطابات يتبادلها أهل القرية البسطاء مع ذويهم المنتشرين فى أرجاء المحروسة. تحت وطأة الملل وطلباً للتسلية فض بعض الخطابات، زادته حكاياتها ملاًّ، إلا خطاب يروى قصة حب متبادل، يتستر عن العيون، ففى خمسينيات القرن الماضى لم يكن المجتمع ليقبل بقصة كهذه خاصة فى الجنوب، حيث الحياة صارمة القواعد. فجأة، تداعت الأحداث فى سرعة، انكشف أمر الفتاة، وأتلف البوسطجى خطأً رسالة إنقاذها. وبينما هو فى ذهوله تناهى إليه صراخ الأم تنعى فتاتها لمغدورة. يدرك الشاب أنه القاتل الحقيقى، فينهار ويمزق ما معه من خطابات. البوسجى أحد قصص مجموعة "دماء وطين" لأستاذنا يحيى حقى (رحمه الله)، تُقدم لنا تركيبة المجتمع المصرى آنذاك وكذلك دور ساعى البريد فى حياتنا.

على ذكر البريد، اشتركنا فى صبانا فى نوادى هواة المراسلة، تبادلنا الصور، والحديث عن الهوايات. أرسلنا صوراً لأشهر معالم المحروسة. أنتظرنا فى شغف نداء ساعى البريد أسفل الشُرفة. فما أن نتسلم خطاباتنا حتى ننزوى نقرأها ونرد عليها. ناهيك عن جمع طوابع البريد. تلك كانت محاولاتنا البسيطة للتعرف على الآخر البعيد.

اليوم، حل البريد الإليكترونى محل ساعى البريد. فعلى مدار الساعة يدق الهاتف الجوال مُنبهاً بوصول رسالة جديدة. مع سهولة التواصل صرنا نواجه فيضاً معلوماتياً صباح مساء. تحولت نصوصنا إلى نبضات كهربائية تنتقل فى حزم من مرسل لمستقبل آناء الليل وأطراف النهار. مضى زمن مطاردة البيانات، وصارت القضية كيف نحلل هذا الفيض المعلوماتى الهائل. فبقدر براعة التحليل وسرعته تكون دقة القرارات. تأخر المعلومة لدقائق يجعل منها سلعة بلا قيمة. شاشات رويترز لتبادل العملة هى الأبرز فى هذا المجال، فالحصول على قراءة لحظية للأسعار يتطلب اشتراك شهرى باهظ الكُلفة، بينما يمكنك الحصول على ذات المعلومات مجاناً بعد خمسة عشر دقيقة من نشرها.

رايموند توملينسون، مخترع البريد الإليكترونى، أو راى كما كان يناديه أصدقاؤه. تخرج من معهد ماساتشوستس. عمل فى بداية حياته العملية فى مشروع ARPANET بوزارة الدفاع الأمريكية. ابتكر برنامج لتبادل الرسائل الإليكترونية بين جهازى كمبيوتر. ككل البدايات البسيطة، اتسم البرنامج بالبساطة ومحدودية الاختيارات. مع ظهور الحاسبات الشخصية أوائل الثمانينات وانتشار شبكات الكمبيوتر صار تبادل الرسائل أمراً حيوياً، خاصة بعد ابتكاره برنامج آخر لنقل الملفات. ما أرق "راى" هو كيف يجعل لكل جهاز عنواناً

خاص به، يتيح لبرنامجه الوصول إليه والتعرف عليه. فكر "راى" أن يفصل بين اسم المُرسِل والموقع المُرسَل منه برمز يتوافر فى لوحة لمفاتيح ويندر استعماله. استقر رأيه على رمز "آت @"، قبل ذلك لمن يكن "لآت" ذكر إلا فى أضيق الحدود.

عبر برنامجه، أرسل "راى" لنفسه رسالة، ثم استخدم زملاؤه البرنامج فى تبادل الرسائل داخل القسم، وبعد فترة وجيزة كانت معظم الاتصالات داخل الشركة تتم باستخدام برنامجه للبريد الإليكترونى. ما جعل اختراع "راى" أكثر إبهاراً إمكانية إرسال البريد فى أى وقت، وتمكن المتلقى من فتح الرسالة متى شاء. بمرور الوقت، ظهرت الإنترنت ليجتذب البريد الإليكترونى مليارات المستخدمين حول العالم، وينسى الكثيرون "راى توملينسون" الذى غادر دنيانا فى مارس الماضى. تركنا ننعم باختراعه، بينما يُصر آخرون على أداء دور بوسطجى يحيى حقى، يتسللون إلى بريدنا الإليكترونى، ينبشون رسائلنا، يكشفون خصوصياتنا، أحياناً قطعاً للرتابة، وكثيراً للبحث عن نوايانا.

جريدة الأهرام المسائى – ١٧ يونيو ٢٠١٦

أعداء الأمس أصدقاء اليوم

لم يجد الرجل ما يوصى به الأمير سوى الإقدام على تنفيذ المشروعات العظيمة التى تتناسب وقدره. أيضاً أوصاه بطباع الثعلب والأسد، فى الأول مكر ودهاء، والثانى قوة وبطش شريطة أن يحكمهما ضوابط واضحة تؤسس حكماً عادلاً. فى كتابه "الأمير" قدم نيقولا ميكيافيللى ما يفيد الحكام ويوطد ملكهم ونسى أن يتقى بطشهم. بعد عامين من إصداره كتابه الأشهر وجد نفسه فى مواجهة غضب الحاكم. أثنتى عشرة عاماً قضاها ميكيافيللى قيد الإقامة الجبرية. انتظر عفو الأمير، وما عفا. هل يلوم نفسه أنه لم يعلمه أدب العفو، ربما.

ما إن بدت فى الأفق بوادر شروع إيران فى برنامجها النووى، حتى تعرضت لحزمة من العقوبات الاقتصادية اختلفت مستوياتها، بدأت فى ٢٠٠٦ بتجميد أصول بنكية لأفراد وشركات ذوى علاقة بالمشروع النووى، تلاها حظر أسلحة مع رفع مستوى العقوبات المالية لتشمل شركات جديدة، ارتفعت وتيرتها فى عام ٢٠٠٨. بعدها بعامين اتخذت تدابير أشد تجاه بنوك إيرانية لمجرد الاشتباه.

على ذات المنهج، بدأت أمريكا عقوباتها مبكراً، وتحديداً فى أعقاب اقتحام الطلاب الإيرانيين سفارتها فى طهران واحتجاز دبلوماسييها

كـرهائن فى عـام ١٩٧٩. تطورت فى منتـصف التـسـعـينات بمنع الشركات الأمريكية من الاستثمار فى النفط والغاز الإيرانيين.

لإيران ثقلها فى سوق النفط. بحوالى ٤,٥ مليون برميل نفط يوميا تحتل المركز الخامس فى الإنتاج. كما أنها رابع وثانى دولة من حيث احـتيـاطيـات البـترول والغـاز، على الترتيب. تضم قـائمـة كبـار الدول المنتجة السعودية، وأمريكا، وروسيا بأكثر من عشرة ملايين برميل يومياً لكل منهم فى سوق تبلغ معروضاته ٩٠ مليون برميل كل صباح.

سنوات عجاف عاشتها إيران جراء العقوبات الاقتصادية، ومع ذلك نما القطاع الصناعى بحوالى ٦,٧٪ مـقـارنة بالعـام الماضـى، فـيـمـا حـسن قطاع المناجم أداؤه بنحـو ١٠٪. إيجـاد توازن بين أولوياتهـا الداخلية وطموحاتها الإقليمية فى ظل ضـغوط اقتصـادية كان شاغلها الرئيسى. تحركها إقليمياً كـان ضـمن مناوراتها غـير المباشـرة مع الغـرب. غليـان فى العـراق. إنشـقـاق فى اليـمن. حـضـور فى سـوريا. دغدغة فى البحرين. توتر فى لبنان.

بحلول منتصف يوليو الماضى شـهدت فيينا توقيع الاتفاق النووى بين إيران من جـهـة وكل من أمـريكا، وروسـيـا، وفـرنسـا، وألمانيـا، والصين، وبريطانيا. إيران ذات الثمانين مليون نسمة واقتصاد بحجم ٤٠٠ مليـار دولار تسـعى إلى شـراكـات عـالميـة تتنوع بين الصناعـة والتجارة.

سياسياً، لا خصومة دائمة. لا صداقة دائمة. من تناصبه العداء اليوم قد يصبح حليفك غداً. وزير الاقتصاد الألمانى كان أول من توجه إلى طهران، منوهاً عن زيارة مرتقبة لوزير الخارجية. آسيوياً استبقت اليابان جيرانها بوفد رفيع المستوى بحث توقيع اتفاقيات توريد نفط وغاز. كما استضافت فيينا مؤتمر "إيران – الاتحاد الأوربى" بحضور ممثلين رفيعى المستوى من الجانبين.

سريعاً تأسست شركة آرفاند بشراكة إيرانية ألمانية لإنشاء محطة رياح بقيمة ٤٠ مليون يورو. إلى جانب الإمداد بالطاقة، تضيف الطاقة المتجددة بعداً سياسياً لإيران. وجود مصالح مشتركة يؤسس لاستقرار مستقبلى. بين عشية وضحاها تحولت طهران إلى قبلة يؤمها الوزراء والمسئولون بعد ما كانت شيطاناً رجيماً.

"الغاية تبرر الوسيلة" عبارة اختزل بها أصحاب المصالح فكر ميكيافيللى، أخفوا ما سطره من تعاليم فى كتابه "الأمير". زكمت رائحة النفط الأنوف يستثيرها حرمان سنوات عجاف. تُرى هل تنشغل إيران بالاستثمار عن التمدد إقليمياً، أم يغريها ذلك بالمزيد من الحركة. يأتينى صدى صوت ميكيافيللى "لابديل عن دهاء الثعلب وقوة الأسد". يقولها ويتركنا فى تساؤلات بلا طائل.

جريدة الأهرام المسائى – ١٢ سبتمبر ٢٠١٥

حضرة السيد واتس

لم يسبق لى أن التقيت به، وإن تردد اسمه أمامى كثيراً. لم أعرف كيف تسلل بيننا ليصبح بين يوم وليلة أحد أفراد العائلة. أكدت الشواهد تسلله عبر التليفونات الحديثة. اختلف الكثيرون عليه، من كان سبباً فى قربهم رأوا فيه أهلاً للخير، ومن اكتوى بناره رأى فيه شراً مستطيرا. وبين هذا وذاك توجد طبقة كبيرة تلتصق به ليل نهار، لا تغادره ولا يغادرها، بل لا أغالى إن قلت إنها لا تعرف العيش بدونه.

السيد "واتس آب" تخطى دوره من برنامج تواصل اجتماعى ليصبح (آب) للجميع. يعيشون فى كنفه، ويأنسون بحديثه. فى المنزل، فى الشارع والمكتب، فى السيارة والباص، على المقهى الشعبى وفى أرقى المطاعم، فى الحارة التى لم تعرف النظافة وأرقى الميادين العالمية يفرض السيد "واتس آب" نفسه.

أصبح الناس أمام ديكتاتوريته سواسية كأسنان المشط يتمتعون بنفس المزايا ولا يحققون ذات الهدف. يُرسَل به خبر عن اضراب هنا وقلق هناك فترتفع اسهم شركات إلى عنان السماء وتهبط أخرى إلى سابع أرض. يتداول البسطاء وصاياهم الدينية، وتراتيل الصباح والمساء. باقات ورد تهدى آناء الليل وأطراف النهار. وصفات الريجيم وتحذيرات من مخاطر الإفراط فى الطعام. مقاطع فيديو تتفاوت فى

تنوعها ومغزاها.مضى زمن كنا نفتح فيه عيوننا فى الصباح ببسمله وحمد، فصرنا نتحسس الواتس بعيون نصف مفتوحة. يسلم الإمام منهياً صلاة الجماعة فيهرول المصلون فى نصف قيام يتصفحون الواتس ويسألون الله المغفره عن سهوهم عنه دقائق معدودات.

على أيدى أنصاف المتعلمين غير السيد واتس وظيفته من رابط اجتماعى يُجمع ولا يفرق إلى واعظ دينى، ومن منقذ فى الأزمات إلى مصدر لأزمة فى كل بيت. تحول الواتس إلى قوقعة يجرى إليها الكبار والصغار. أصبحنا أشبه بالحلزون إن فارق قوقعته هلك. تتحدث فلا يسمعك أحد، تنادى فلا ينتبه أحد. سدوا آذانهم بالسماعات واتجهت عيونهم لقبلة السيد واتس. هل يمكن أن نقتسم اهتماماتكم أيها الصغار. هل يمكن أن تتركوا لنا أذنا واحدة حتى إذا ما صرخنا سُمعنا. هل يمكن أن تتركوا لنا عينا واحدة، حتى إذا ما عز الكلام وأشرنا أُغثنا.

إيه شتان بين ما نعيشه وما يحياه الآخرون. فى علوم الإدارة الحديثة دخلت وسائل التواصل الاجتماعى فى تسيير مجموعات العمل وحل المشاكل عن بعد. تُرسل الصور من مناطق نائية لتدرس وتحلل من قِبل متخصصين توفيراً للوقت وتعظيماً للعائد. فى غرف الدردشة يناقش المتخصصون كل جديد فى مجالاتهم فتُكتسب الخبرة وتصقل المهارات. بالإدراك والعلم تتفتح مداركنا، نرى أبعد من وقع أقدامنا.

نرى أبعاد عالم نعيشه ضيقاً وهو أرحب من سماء وأرض.

فى المجتمعات التى تتصنع العلم وتحترف الجهل تُغير الأدوات وظائفها الرئيسية. تحولت غُرف الدردشة للرغى. سهل السيد واتس وأبناء عمومته "فيسبوك، آنستجرام" التطرف وكافة أنواع التجارة غير المشروعة، وكأن استخدامهم فى تجارة مشروعة أمر محظور. حظر أو لا حظر. لا. قل علم أو لا علم. فى فضاءات الثقافة المشوهة والعلم المبتور انتظر أن يطل علينا مذيع بالغ الأناقة، ذو صوت أجش. تنزلق تفاحة آدم بوضوح صعوداً وهبوطاً على رقبتة الرياضية. يمتلك عينى محقق يوقن أنه أعلى من القانون. ينظر بعينين ثاقبتين إلى المشاهدين فيخترق نفوسهم. يصمت لحظة فتسرع أيدى المشاهدين تبحث عن هواتفها المحمولة، تتصفح الواتس فى اعتراف ذاتى بالذنب، فى حين يأتى صوته الأجش مُتسائلاً ومُشككاً "يا ترى، خلصت واتسك النهاردة؟".

جريدة الأهرام المسائى – ٢٩ أبريل ٢٠١٦

التفكير العلمى ... عندما يتحدث العقل

اعتدت منذ بدأت كتابة المقالات عرض محتوى بعض ما أقرأ، تأكيداً أن لكل كاتب روافد يستقى منها أفكاره ورؤاه، ويقيناً أن للقراء حق فى معرفة هذه الروافد ومشاركته فيها.

واليوم أعرض لكتاب "التفكير العلمى" للعلامة الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا الصادر عن مكتبة الأسرة التى ما فتأت تقوم بدورها فى نشر العلم والثقافة رغم الأحداث والمصاعب التى تواجهها مصر، لتصبح مطبوعاتها شهادة بأن نشر المعرفة فريضة تؤدى وإن احاطتها المكاره.

يعرف الدكتور زكريا التفكير العلمى بأنه ذلك التفكير المنظم القائم على مبادئ يمكن تطبيقها فى كافة شئون حياتنا، ليتحول من الشعور إلى اللاشعور ممتزجاً بأفعالنا وأقوالنا. يؤسس الكتاب ليصبح التفكير العلمى منهج حياة متجاوزاً قاعات درس الموضوعات النظرية ومعامل العلوم التطبيقية، ومرد ذلك أن ما نحياه اليوم من انجازات علمية إنما ازدهرت اعتماداً على أنماط تفكير واستقصاء وضعها علماء عديدون فى شتى بقاع الأرض، من ابن رشد فى الأندلس، إلى جاليليو فى إيطاليا، إلى فيثاغورث فى أثينا، إلى بور فى الدنمرك، وغيرهم لا حصر له. نشأ العلماء فى بيئات مختلفة وربط بينهم تفكير علمى

تأرجح بين الشك واليقين، فأنتج نظريات ومناهج ظلت مراجع ثابتة لا تؤثر فيها السنين.

على مستوى الوطن الحبيب "مصر" يبدو التفكير العلمى ضرورة، وعلى مستوى الوطن العربى الأرحب يظل حلاً حتمياً لا بديل له. إن ما نراه اليوم من صراعات فكرية وعقائدية واقتتال تتمزق بينها أرض الوطن ومستقبله يؤكد غياب منهج التفكير العلمى. غاب المنهج فغابت معه أسس الحوار، وضرورة احترام الآخر، وفقه الاختلاف. ولعلنا نتساءل لما لا تتجاوز الصراعات الفكرية والحزبية فى الدول الغربية حدودها، لما لا تصل إلى مستوى تكفير الآخر واستباحة دمه، وتقديم قائمة من الأسباب المخزية عن حق فئة ما فى تدمير البنية التحتية للوطن، وتكمن الاجابة فى اعتماد المنهج العلمى كإطار عام للحوار والاختلاف. علماً بأن الغرب عرف – وربما لا يزال هناك بقية من إرث قديم– كيف يوظف الدين لخدمة المصالح الشخصية وتبرير الأطماع السياسية. عرفت الكنيسة صكوك الغفران فى القرن السادس عشر، وجيشت أوربا الجيوش تحت اسم تحرير القدس فاندلعت الحروب الصليبية. ثم، استبانت أوربا المنهج العلمى فتمترست خلفه لا تحيد. تأكدت أوربا أن بقائها وتطورها مرهونان باعتدال واستواء صفوفها خلف التفكير العلمى، فانتظمت لا تحيد.

غاب عنا التفكير العلمى فتحولت نقاشاتنا إلى معارك، وآراؤنا

سهاماً مسمومة، وأفكارنا قنابل عنقودية موقوتة يسقط ضحاياها كل يوم فى مصر، فى العراق، فى سوريا، فى اليمن، فى لبنان، فى السودان. إن ما نراه على ساحاتنا الإعلامية المقروءة والمسموعة والمرئية من اقتتال ليس إلا رجع صدى صراخ الجهل الذى بات يحكم علاقاتنا لينزوى العقل منكمشاً لا يبين له صوت.

ولعلنا نتساءل، هل العلم قوة مضادة لتطور الأمم؟، يخبرنا الكتاب أن سوء فهم العلم كان الركيزة التى نشبت بسببها المعارك ضد العلم والعلماء. عداءات الكنيسة الكاثوليكية ضد جاليليو بسبب إثباته كروية الأرض، وبأن الشمس مركز المجموعة الشمسية، واتهامه بالهرطقة ترجع إلى عدم فهم نظريات جاليليو. كاد أناس لابن رشد لدى أبو المنصور الموحدى حاكم الأندلس فأمر بنفيه إلى قرية إليسانة هو وتلاميذه وأمر بحرق كتبه ونهى الناس عن دراسة الفلسفة. وغيرهما من العلماء كُثر غيروا وجه الأرض، صبغوها بأطيب منحة أعطاها الله للإنسان، ألا وهى العقل، فثارت فى وجوههم قوى كثيرة يدفعها الجهل وعداءها للعلم وأهله. فما الذى حدث بعد ذلك، تقدم العلم بجهود العلماء. وجدت الكنيسة نفسها أمام حقائق لا يمكن إنكارها أو التغاضى عنها أو إقامة عداءات بسببها. وراجع المنصور نفسه فاستدعى ابن رشد إلى مراكش، ورفعه مكاناً علياً، وباتت المساجد والمعاهد والجامعات تدرس الفلسفة، بل صار هناك "فلسفة إسلامية"

روادها الكندى، والفارابى، والرازى، وابن سينا وغيرهم حتى وقتنا الحاضر.

أمر آخر يراه الدكتور زكريا سبباً حتمياً لاعتماد التفكير العلمى ألا وهو ثورة المعلومات أو ما بات يعرف بالانفجار المعرفى، وما ترتب عليه من توافر معلومات يصعب -إن لم يستحيل- على العقل البشرى فرزها وترتيبها واستخلاص النتائج الصحيحة منها فى وقت قصير. لتصبح المعلوماتية بكافة أبعادها أداة لا يستطيع فرد أن يتخلى عنها فى الوقت الحاضر، بدءا من البحث عن المعلومة، وانتهاء بالوصول إلى النتائج. ثورة أدت إلى أتمتة "Automation" معظم أعمالنا -بمعنى ميكنتها وتفويض الآلة أدائها عنا- ولأن أتمتة عمل ما يعتمد على فهم دقيق لكافة تفاصيله كان منهج الخوازمى أساساً لبناء برامج يطمأن لها البشر، بل ويوكل لها اتخاذ قرارات دقيقة وحاسمة فى وقت يطيش تفكيره متأثراً بعواطف ومشاعر لا تعرفها تلك الأجهزة.

إن تقدمنا مرهون بمستوى اعتمادنا على التفكير العلمى، من هنا يصبح تصدير العقل، وإحكام الأسباب، ومنهجية الاستدلال أدوات نستكشف بها مستقبلنا، نسعد باختلافنا حولها، نثق بها فى الغد نستشرف شمسه القادمة بالخير، فهل نفعل؟.

جريدة الأهرام المسائى – ٢٤ أغسطس ٢٠١٤

ربع قرن من الاتحاد

بلد شطرته الحرب العالمية الثانية إلى قسمين. سور فاصل يمتد كنصل سكين ينفذ عبر الضلوع والقلوب قبل أن يخترق طرقات المدينة الحزينة. تفاوت اقتصادى واجتماعى هائل. غرب متقدم، وشرق غارق فى تقارير الأمن السرية. فى خضم ذلك، تولى هيلموت كول فى الأول من أكتوبر ١٩٨٢ منصبه كمستشار لألمانيا الغربية. لم تبرح مآسى الحرب ذاكرته بعد. مناخ جد عصيب. قضايا داخلية. أحزاب معارضة. جار مُشاكس. قوى عظمى تتصارع. ومع هذا، نجح فى توحيد ألمانيا. مع انتهاء مدته رحل الرجل فى هدوء مفسحاً المجال للآخرين.اليوم تشغل آنجيلا ميركل زعيمة حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى وابنة الجانب الشرقى ذات المنصب. ظلت آنجيلا تلميذته الأثيرة والأقرب إلى قلبه وعقله حتى رحيله.

فى مثل هذه الأيام وتحديداً فى التاسع من نوفمبر ١٩٨٩ أسقط مئات الآلاف من الألمان الشرقيين جدار برلين، الذى شق ألمانياإليدولتين. عانت ألمانيا نزوات حاكم رأى الكون فى نفسه والوجود فى أنفاسه. تحت وطأة نعرات الجنس السامى قادها هتلر من دمار إلى دمار، ومن خراب إلى خراب. فجاء قرار التقسيم. سنوات طويلة من التمزق والغربة والشتات.

كثيرة هى حكايات الألم والقهر. محطة قطار "فريدريش اشتراسا"، كانت مسرحاً لعالمين مختلفين تمام الاختلاف. الأهل على الجانبين غرباء صامتون، ووحدها صارت الدموع لغة تواصل وشكوى، فأطلقوا عليها محطة الدموع. تماماً كما فى وادى الصرخات، الفاصل بين الأهل والأبناء فى الجولان. كم نقلت الحناجر المبحوحة ومكبرات الصوت تباريح البعد والفراق. اليوم صارت بلاد العرب أودية صرخات ومسرحاً للتشظى والصراخ.

سقط جدار برلين وانهار نظام ألمانيا الشرقية وأُعلنت الوحدة فى الثالث من أكتوبر ١٩٩٠. عوضاً عن الانشغال بمشاكل وأعباء الجانب الشرقى المتخم بالهموم، انشغل الألمان بتطوير الاقتصاد والحياة السياسية والتعليم. تناسوا الماضى البغيض. ألقوا كتاب الماضى فى المحرقة. حولوا ألمانيا من بلد مقسم، مدمر، منكسر إلى دولة قوية تقود قطار أوروبا والاتحاد الأوروبى. بدءوا ببناء النفوس فسهل عليهم بناء الدولة.

فى أكتوبر من كل عام تقام المعارض الفنية بموازاة ما تبقى من الحائط. معارض تتفاوت فى حجمها بين صغير ومتوسط، تعرض بالصوت والصورة تباريح الحرب والفراق. تحكى الأفلام التسجيلية سنوات اليأس والضياع بين أوها محاكم أضاع الدولة وآخرين أعادوا بنائها. يحرص السائحون على زيارة ما تبقى من الجدار، إلا أن أكثر

الزوار مواطنون ألمان اصطحبوا أطفالهم ليعلموهم أن وراء كل شطط خراب، ووراء كل تطرف دمار، وخلف كل تشظى ضياع.

اليوم، تتحمل ألمانيا تبعات التحولات الأوربية. خروج بريطانيا من الاتحاد الأوربى. ضعف اقتصاد إيطاليا وإسبانيا. هشاشة الاقتصاد اليونانى، وضرورة توافر برنامج إقراض طويل المدى. أزمة المهاجرين ومحاولات دمجهم فى الكيان الأوربى، وتلافى ظهور تكتلات عقائدية. تنامى شعبية حزب "البديل من أجل ألمانيا" واقتطاعه نسبة من كعكة حزب الاتحاد المسيحى الديمقراطى، وإخفاق الأخير تقديم مرشح لانتخابات الرئاسة فى ٢٠١٧. حركة بجيدا وعدائها للإسلام. عزم ميركل ترشحها لفترة رابعة. تحديات السياسة الخارجية فى ضوء انتخاب دونالد ترامب. صعود الدولار على حساب اليورو، وغيرها من التحديات.

على الرغم من كثرة الآلام، يظل نسيان كل ماض بغيض شرط لتقدم الأمم. فالتسامح أساس بناء وطن يجمع ولا يفرق. يرسخ أوتاده فى الأرض ويتقدم فتياً إلى الأمام. مطالبون نحن بإغلاق نافذة الأحزان والمرور من بوابة الأمل. بالعمل للغد. يقيناً أن مصر وطنٌ يتسع للعالم أجمع فكيف يضيق ببنيه؟.

جريدة الأهرام المسائى – ٢٥ نوفمبر ٢٠١٦

أبيض وأسود ... لدى حُلم

جامبيا، عام ١٧٥٠، بشرة سمراء وصيف حار. فتى غض الإهاب، ذو ستة عشر ربيعاً، واسع العينين، أجعد الشعر، انتهى لتوه من صلاة الظهر وانطلق صوب الغابة. فجأة، وجد نفسه أمام حفنة من رجال توحى ملامحهم بالشر وسوء النية. ضُرب حتى فقد وعيه، وعندما أفاق وجد نفسه وسط كتلة بشرية من فتيان يشبهونه مكومين فى قاع سفينة، انطلقت من ساحل جامبيا بالغرب الإفريقى صوب أمريكا. بعد شهور طويلة، وصل كونتا عمر كونتى ومن تبقى معه إلى الساحل الشرقى لأمريكا ليباعوا كعبيد. من المفارقة أن أمريكا، بلاد الحرية كما يُكنيها البعض، كانت أكبر سوق لتجارة العبيد.

نيويورك، عام ١٩٧٦، دار نشر دابلداى. أصدر آليكس هايلى رواية الجذور متتبعاً بحسه الصحفى والروائى مسار رحلة جده الأكبر، كونتا، ليسجل فى صبر ودأب دقائق حياة أجيال من العبيد يباعون ويشترون حتى صدر إعلان الرئيس الأمريكى إبراهام لينكولن بتحرير العبيد عام ١٨٦٢.

واشنطن، عام ١٨٦٠، حرب أهلية بين ولايات الشمال والجنوب الأمريكية. فى سعيه للوحدة، استعان لينكولن بفريدريك دوجلاس، أحد أكبر كتاب أمريكا فى ذلك الوقت. خاضا سوياً حرباً شرسة ضد

العبودية والإنقسام. فريدريك الذى قضى العشرين عاما الأولى من حياته كعبد وضع يده فى يد لينكولن حتى تعود الوحدة بين الولايات وتتوقف الاضطرابات الداخلية. فى حين ساعده لنكولن على إنهاء العبودية وبدء زمن الحرية.

ولاية آلاباما، عام ١٩٥٥. شتاء قارس يعم المدينة. يقف اتوبيس فى أحد المحطات. يركب رجل أبيض، سرعان ما تقدم نحو كرسى تجلس عليه فتاة سمراء تدعى روزا باركس. طلب منها ترك كرسيها ليجلس، فرفضت. صرخ فيها الركاب البيض، فأصرت. هددوها، فتجاهلتهم. غير السائق وجهته إلى أقرب قسم شرطة حيث اعتقلت جراء مخالفتها قانون لا يسمح للسود بالجلوس بينما يقف راكب أبيض. فى سرعة، تحولت قضية روزا إلى شرارة غضب ضد قوانين التفرقة العنصرية. "ممنوع دخول الكلاب والسود"، عبارة كثيراً ما كنت تجدها فى المطاعم والمقاه، والمسارح، ودور السينما الأمريكية آنذاك. لنحو عام سارت أمريكا من عصيان إلى تمرد، حتى أُلغى قانون التمييز بين البيض والسود فى وسائل المواصلات. روزا لم تكن الأولى فى طابور مخالفة القوانين العنصرية، لكنها كانت الأكثر تأثيراً.

ولاية تينسى، عام ١٩٦٨، الرابع من أبريل. يقف شاب أسمر البشرة فى شرفة أحد فنادق مدينة ممفيس التى يزورها دعماً لحركة

عصيان وتمرد مدنى قام به السود. فجأة دوى صوت طلقة رصاص. يسقط الرجل الأسمر فى أرضية الشرفة. قُتل مارتن لوثر كينج أيقونة مناهضة التمييز العنصرى. ألقت مكامير الغضب بحممها على أمريكا متخذة من عبارة كينج "لدى حُلم I have a dream" وقوداً لا ينضب.

كينج الذى طالما ساند روزا فى نضالها، وحرض السود على العصيان السلمى فتزعزع اقتصاد الرجل الأبيض. كينج الذى ناضل حتى أصبح للرجل الأسود صوت انتخابى. كينج الفائز بجائزة نوبل للسلام عام ١٩٦٤ تقديراً لنضاله الإنسانى لم ترحمه يد الكراهية والحقد من معايشة لحظة توقيع الرئيس ليندون جونسون على قانون الحقوق المدنية الذى ساوى فيه بين كافة الأعراق والألوان والأجناس فى الولايات المتحدة الأمريكية. الآن، وفى بلد (الحرية)، ما زال الكثير من البيض يعتبرون القانون حبراً على ورق، مؤكدين أن زمان التقارب بين الأبيض والأسود لم يحن بعد.

جريدة الأهرام المسائى – ١٥ يوليو ٢٠١٦

أبيض وأسود ... دار الجبل

نيويورك، عام ٢٠٠٤، دار نشر ثرى ريفرز، صدور الطبعة الثانية من كتاب "أحلام من أبى" لباراك أوباما، حيث كتب فى مقدمته "بدأت الكتابة وأنا أؤمن أن قصة عائلتى، ومحاولاتى لفهم تلك القصة، قد تخاطب بصورة ما صدوع العنصرية التى كانت سمة التجربة الأمريكية، وأيضاً حالة الهوية غير الثابتة –القفزات عبر الزمن وتصادم الثقافات– التى تمثل سمة حياتنا العصرية". كانت الطبعة الأولى قد صدرت فى منتصف التسعينات، أى بعد ربع قرن تقريباً من إصدار الرئيس الأمريكى جونسون لقانون الحقوق المدنية الذى ساوى فيه بين كافة الأعراق، ومع هذا يستشعر أوباما أن المناخ العام ما زال يعانى صدوعاً وتشققات.

ولاية لويزيانا، ٦ يوليو ٢٠١٦، رجلا شرطة يطلقان النار على شاب أسود. اختلفت الروايات حول الدوافع، لكنها اتفقت على مسئوليتهما الجنائية، حيث سجلت صديقة القتيل الحادث بهاتفها المحمول وبثته مباشرة على مواقع التواصل الاجتماعى. أثار الحادث موجات غضب عارمة من جانب المواطنين ذوى الأصول الإفريقية، لتطفو على السطح مخلفات ورواسب ماض بغيض.

لويزيانا، ١١ يونيو ٢٠١٦، رجل أسود طُرحَ أرضاً وكُبلت يديه

خلف ظهرة بشريط بلاستيكى، يتكئ رجل شرطة بركبته اليسرى على رأسه، بينما تضغط ركبته اليمنى على وجهه، وفى المابين يواجه المتظاهر الأسود الكاميرا والشرطة بعيون مفتوحة وفى تحد صامت. "نتظاهر لأن لا أحد يصغى لنا. سوف نتظاهر وسوف ترتفع حدة احتجاجاتنا حتى تنصتوا لنا، وحتى نلمس ردود فعل إيجابية"، قال أحد الشباب صارخاً فى وجه كاميرات القنوات الفضائية أثناء تغطية الاحتجاجات الأخيرة.

ولاية فرجينيا، عام ١٩٩٥، اكتشاف مخطوطات باللغة العربية كتبها عُمر بن سعيد الذى بيع أوائل القرن التاسع عشر للجنرال جيم أوين، حيث طلب منه كتابة سيرته الذاتية لتعطى صورة عن المناخ الذى عاشه هو وأقرانه. تشير جنيف عبده فى كتابها "مكة الاتجاه العام"، أن الغرب الإفريقى المكون من السنغال، وجامبيا، وغينيا بيساو وغيرها مثل مصدراً رئيسياً لتوريد العبيد لأمريكا آنذاك. جاءوا غرباء، مثلهم مثل الرجل الأبيض الذى اقتحم أمريكا بالبندقية والبارود والتميز العنصرى متناسياً أنه فى دولة لولا التعدد العرقى لما قامت. أيضاً، تجاهل حقوق القادمين من القارة السمراء، فاستأثر وحده بالموارد الاقتصادية، والوجاهة الاجتماعية، والسياسية. على الجانب الآخر، حمل المهاجرين أرضهم فى قلوبهم. استظلوا بسمائها واستمطروا غيمتها. تنفسوا رحيق غاباتها البكر. حملوا طقوسهم،

دياناتهم، مذاهبهم، معتقداتهم فى صدورهم وأبوا أن يتركوها عند بوابة الدخول للعالم الجديد. حتى أبنائهم وأحفادهم الذين لم تمس أقدامهم ولم تر عيونهم تراب قارة الأجداد ساروا على ذات الطريق. صارت القارة رمز الوفاء لآباء وأمهات دفنوا فى أمريكا، بينما آبت أرواحهم فى سكينة إلى أرض الوطن.

يُذكرنى ذلك بقنديل العنابى الذى هجر بلدته إثر قصة حب لم يكتب لها النجاح. سافر تحوطة الدعوات والأمل فى دخول دار الجبل التى عجز شيخه عن بلوغها. رحلة طويلة بدأها من بلاد المشرق، مروراً ببلاد الحيرة، فالحَلَبَة، فالأمان، ثم بلاد الغروب. ما غفل عنه العنابى، أن بوابات دار الجبل مفتوحة للجميع، لكنهم ليسوا سواء، فمن خادم لسيد تتعدد رتب الحياة. هكذا عبر أستاذنا نجيب محفوظ فى روايته "ابن فطومة" عن أولئك المهاجرين صوب دار الجبل. تُرى كم منهم عاش سيداً، وكم منهم دفن أحلامه فى صدره وعاش غريباً كالعنابى.

جريدة الأهرام المسائى – ٢١ يوليو ٢٠١٦

أبيض وأسود ... كم أنت ساذج

"ود الزبير"، نخاس محترف. قايض خمس بنادق بأربعين رجلا. فى رحلة العودة استولى الوالى على الرجال ليضمهم إلى كتيبة من نحو خمسمائة مقاتل، ليعود ود خالى الوفاض. عبيدٌ فى زى مقاتلين أبحروا من بر الأسكندرية إلى بر المكسيك. طبقاً للأوامر التى ينقلها التُرجمان، ستنضم الكتيبة إلى قوة فرنسية سيرها نابليون الثالث ملك فرنسا لمساندة ولى عهد النمسا مارك فى حكم المكسيك. لغة مبهمة، وأسماء لملوك وبلاد لا يفهمونها ولا تربطهم بها علاقة. قد تحارب دفاعاً عن وطن، عن كرامة، عن قضية. لكن، كم هو قاس أن يُقذف بك إلى معركة فتقاتل كى لا تموت.

بعد محاولات هرب باءت جميعها بالفشل، يتدرج العاصى من فرد فى الكتيبة إلى قائد لمجموعته. خاض بهم غمار حروب لا تعرف الرحمة. بحكم الخبرات المكتسبة تصبح الكتيبة أفضل عناصر القوة الفرنسية، تقاتل بشراسة، ويسقط رجالها فى صمت. فى مناخ مُلبد بالهزائم والخيانة تضمه الإمبراطورة إلى حرسها الخاص. صار الأمين المقرب منها وإليها خاصة بعد مقتل مارك وسحب نابليون لقواته. فى رحلة الإياب يُفضل العاصى البقاء بالقرب من الإمبراطورة فى باريس. ومع تدهور الأوضاع واندلاع الثورة الفرنسية يشارك بخبرته العسكرية فى إدارة المعارك، حتى يسقط قتيلاً. من عبد يبحث

عن الحرية إلى مقاتل فز يتقن الفرنسية والإسبانية، إلى عاشق تحكى رواية "كتيبة سوداء" لمحمد المنسى قنديل قصة العاصى ورفاقه الباحثين عن الحرية والإنسانية.

على حافة الموت. لا سيد. لا عبد. فقط إنسان. بحكم ضعف ذاكرة البشر وولعهم بالتصنيف، عرفت البشرية أنماطاً مختلفة من التمييز. على مستوى الدول، صار هناك شمال المتوسط وجنوبه. أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية. شمال إفريقيا ودول الصحراء (دول ما دون الشمال الإفريقى)، وغيرها. ما عزز هذا التقسيم، والنظرة الفوقية إن صح التعبير، ما اتسمت به دول الشمال من تقدم اقتصادى واجتماعى وسياسى مقارنة بجاراتها الجنوبية الغنية بمواردها الفقيرة بجهلها.

ما طبقته الدول حيال بعضها انعكس داخلياً عبر مراتب تمييز شملت الدين، والعِرق، والمستوى الاجتماعى. فى الستينات شهدت أيرلندا صراعاً طائفياً بين الكاثوليك والبروتستانت لتستدعى الذاكرة الحروب الدينية الأوربية / الأوربية فى القرن السابع عشر، وما سبقها من حروب أوربية/عربية، عُرفت بالحروب الصليبية. تطهير عرقى. إبادة، حملات لم تعرف الهوادة بداية من المغول، ومروراً بفظائع القوات اليابانية ضد مواطنى سنغافورة، وكوريا، والصين. وصولاً إلى همجية إسرائيل، أو ما نراه اليوم على يد داعش.

على سلم التمييز الاجتماعى، يجابهه الأوربيون من أصول عربية موجه عاتيه من الاضطهاد والإقصاء جراء انخراط جماعات إرهابية فى أعمال عدائية تحت اسم الدين الإسلامى. أيضا، يحظى اليهود المنحدرون من أوربا (الأشكيناز) بمزايا اجتماعية ووظيفية فى إسرائيل لا يحصل عليها أولئك القادمين من الشرق (السفرديم). حتى بعض الدول العربية لم تسلم من تمايز خفى تلمسه وتعيشه العمالة الوافدة وبعض أبنائها.

شريط طويل يمر أمام عينى مسرعاً أرى فيه وجوه العاصى، كونتا كونتى، عُمر بن سعيد، أليكس هايلى، إبراهام لينكولن، فريدريك دوجلاس، روزا باركس، مارتن لوثر كينج، ليندون جونسون، وغيرهم كثير. مسلم. مسيحى. قس. شيخ. سنى. شيعى. كاثوليك. أرثوذكس. تعبرنى الوجوه مبتسمة فى سلام وهدوء. أتنهد. أتساءل. لكم عَمرت، ولكم جهلت أيها الإنسان. تخدعك الألوان وتنسى الجوهر. تغرق فى النيات وتغفل عن الأعمال. لكم أنت ساذج يا سيدى.

جريدة الأهرام المسائى – ٢٩ يوليو ٢٠١٦

الغريـــب

تلقى "ميرسو" نبأ وفاة والدته بأحد دور المُسنين بريف الجزائر بمشاعر محايدة. توقف فى طريق سفره بأحد المطاعم لتناول غذاءه. لم يتردد فى إبداء استيائه لمدير الدار من تأخر مراسم الدفن وتعب السفر. أشعل سيجاره. طلب كوباً من الشاى. بمجرد انتهاء المراسم، انفرجت أساريره، وأفل عائداً إلى العاصمة. فى طريق عودته، مر بصديقته وتواعدا على اللقاء صباح اليوم التالى على الشاطئ. قضيا يوماً طيباً عكره احتكاك -بدا عابراً- مع بعض الشباب الجزائرين. أفلت خيط صبره. أطلق رصاصات للردع، فقتل أحدهم. سجل المحقق ملابسات الواقعة، وأقوال الشهود. بإصدار المحكمة حكماً بإدانته يختتم ألبير كامى رواية "الغريب". أدبياً، تعبر الرواية عن أفكار كامى ونظرته العبثية للحياة، حيث تتحول التفاصيل اليومية العفوية إلى إدانات.

خلال الفترة من ٢٠٠٩ حتى ٢٠١٣ تولت هيلارى كلينتون منصب وزيرة خارجية أمريكا. تقتضى بروتوكولات العمل استخدام بريد إليكترونى رسمى فى تداول الرسائل الإليكترونية. تكفل العديد من الإجراءات الوقائية حماية الرسائل من نزوات محترفى اختراق الحسابات الشخصية وعيون وآذان الجواسيس الإليكترونية. لسبب أو لآخر، استخدمت هيلارى بريدها الشخصى فى تداول بعض الرسائل والتوصيات.

هيلارى التى أقامت فى البيت الأبيض متوجة بلقب السيدة الأولى، لم تغادر مخيلتها غرفة وأروقته. أغمضت عينيها عن نزوات زوج ترأس أقوى دولة فى العالم مدة ثمانى سنوات. وقفت إلى جواره. كبتت صورتها فى صدرها، فلم يسمعها أو يشعر بها أحد. فى صدر هيلارى شَبَقٌ أكبر للرئاسة.

استطاع آل بوش تسجيل أول حالة لأب وأبن يتوليا رئاسة أمريكا. فلماذا لا تكون هى أول زوجة رئيس تتولى الرئاسة. زكمت رائحة زهور البيت الأبيض أنفها وتأججت شهوة الحكم فى رأسها. قررت خوض غمار السباق الرئاسى. جابهت بجلد وكياسة حروباً صغيرة وكبيرة داخل حزبها. أعلن الحزب الديمقراطى ترشُحها رسمياً. على مدار عامين، مضت من تحد إلى آخر. صرحت الصحافة المقروءه والمسموعة بانحيازها معها. سجلت استطلاعات الرأى تفوقها على غريمها دونالد ترامب. عززت موقفها بأداء مسرحى ناجح فى مناظرات ثلاث. بدا الحلم المراوغ قريباً. بل أقرب من الواقع. على الجانب الآخر، أغمض ترامب عينيه وسد أذنيه عن كل ذلك. علمته التجربة أن الصفقات المستحيلة، هى الأقرب للاستحواذ والأكثر ربحاً.

قبيل أيام من بدء التصويت، فتح مكتب التحقيقات الفيدرالية ملف الرسائل الإليكترونية لهيلارى. ما بدا فى يوم من الأيام أمراً عادياً لا يستحق الذكر، تحول إلى أداة للاتهام. تماماً كما سجلته رواية الغريب

لكامى. وكما فتح المكتب ملف التحقيقات فجأة، أغلقه فجأة. "اسجنوها"، صرخ ترامب فى مؤيديه عشية التصويت، فامتلأت شوارع بلد العجائب بدُمَى هيلارى فى ملابس السجن.

مع مرور الوقت وتحت تأثير إعلام مُضلِل، أسند الجميع ظهره للمقعد ومدد ساقيه فى اتجاه تلفاز يتنفس كذباً. وعلى الرغم من توالى ارتفاع أصوات ترامب، انتظر الجميع اقتحام الكاوبوى الأمريكى شاشات العرض على صهوة جواد جامح معلناً فوز هيلارى، فى مشهد يحترفه مخرجو هوليود. فى صمت، سلمت ولاية تلو أخرى مفاتيحها لترامب، رجل المال والاستثمارات. لم تفلح حملة التأييد التى قادها أوباما لمساندة هيلارى، بل ربما كان هو بسياساته سبباً لهزيمتها. ترامب الرافض لإحصاءات تُطبخ تحت السلم، المحتكم إلى نتائج السوق لا توقعاته، مطمئنٌ لخبرته فى تَدجين المعارضين، وتعود الإذاعات على صوته، والشاشات على صورته، والصحف على تصريحاته. ترامب المألوف لعالم المال والأعمال الغريب على منصات السياسة يرفض عبثية كامى، مؤكداً أنه لن يعيش فى دور الغريب.

جريدة الأهرام المسائى – ١٨ نوفمبر ٢٠١٦

بحثاً عن مرآة مستوية

استناداً إلى إخضاعه الدول للتشريع المحلى الأمريكى، رفضت القمة العربية الإفريقية المنعقده فى العاصمة الغينية مالابو منذ أيام قانون العدالة الأمريكية، جاستا. فبشكل غير مباشر نزع القانون استقلالية الدول وحولها إلى ولايات تابعة. طبقاً لجاستا يحق لضحايا الأعمال الإرهابية فى أمريكا وأسرهم إقامة دعاوى قضائية أمام المحاكم الأمريكية ضد الأشخاص أو البلدان المشتبه فى تمويلهم لتلك الأعمال. فى مثل هذه المواقف، لا ينظر للرفض مالم يُشر لأنياب ومخالب تتحرك على المستويين العربى والدولى.

عربياً، دُمر العراق تحت إدعاء امتلاك أسلحة دمار شامل. مُزق إلى مناطق كردية فى الشمال، وسنية فى الوسط، وشيعية فى الجنوب. تقسيمات تناست وحدة بلد أنار بحضارته العالم وقت أن كانت أوربا تتخبط فى غياهب الجهل وأمريكا قيد الاكتشاف، تركته الأخيرة فريسة لحرب عشائرية مذهبية فَتَتَهُ فاستباحته داعش. ملايين القتلى والنازحين والمفقودين. تُرى كم عِقدٌ يحتاجه العراق حتى يعود إلى حاله قبل ٢٠ مارس ٢٠٠٣، تاريخ بدء الحرب. أليست أمريكا هى من يجب أن يعوضه عن كل هذا.

أيضاً، تحولت سوريا إلى ساحة لاستعراض عضلات روسيا أمام

أمريكا. روسيا المستميتة لاسترجاع ماض فككه الكاوبوى الأمريكى بعد وصول الرئيس الروسى بوريس يلتسين إلى الكرملين على ظهر دبابة فى يونيو ١٩٩١. اليوم تُفرغ سوريا من مواطنيها. تنصب داعش دولتها فى العراق والشام. يتمدد النفوذ الإيرانى. تتحلل ليبيا. يتفسخ اليمن. على مدار الساعة تفقد الدول هويتها. ألا يدعو ذلك لمقاضاة من يضمن للمتقاتلين إمدادات لا تتوقف.

على المستوى الدولى، تعرضت اليابان لأقسى مستويات التدمير، ففى صباح ٦ أغسطس ١٩٤٥ ضُربت هيروشيما بالقنبلة النووية، وبعدها بثلاثة أيام ضُربت ناجازاكى بأخرى مماثلة. أعلنت اليابان استسلامها دون شروط. ملايين الموتى والمشوهين والجرحى. أليست أمريكا الأولى بدفع الثمن.

كيف نتحرك؟، كيف يصبح لدينا رد فعل مؤثر؟. فقوة جاستا لا تستمد من مواده قدر استمدادها من قدرة أمريكا على النفاذ ضد دول أخرى، سواء تحت عباءة الأمم المتحدة، أو التحرك منفردة، أو مع حلفائها المقربين كإنجلترا، كما حدث فى العراق. من جهة أخرى، يمكنها التحفظ على رؤوس الأموال والودائع العربية لديها. فبحسب تقرير وكالة بلومبيرج، بلغت الأرصدة السعودية نحو ١١٦ مليار دولار فى مارس الماضى. لينتج عن ذلك مناخ يثير شهية الرئيس ترامب لتحقيق ما وعد به خلال حملته الانتخابية من إجراءات تجاه بعض دول

الخليج، وضمان ولاية ثانية.

وما قد يحرك أمريكا اليوم ضد السعودية تحت إدعاء أن أغلب من قاموا بهجمات الحادى عشر من سبتمبر من أصول سعودية، كفيل بإثارتها غداً ضد مصر تحت إدعاء مشاركة محمد عطا فى هجمات سبتمبر ٢٠٠١ بحسب الرواية الأمريكية، وكون أيمن الظواهرى من مواليدها، من الوارد حدوث ذلك حتى مع تعرض مصر لهجمات أنصار القاعدة وداعش ومن والاهم.

تتحسس الدول العربية أدواتها المحصورة بين نفط فقد سيفه فعجز عن تخطى حاجز الخمسين دولار للبرميل، ودول تحللت وتفسخت فما عادت تُفزع إلا أفراخ الدار، واقتصاد ينزف آناء الليل وأطراف النهار تعتصره فواتير تجار الحروب والسلاح والموت.

مستقبل ملبد بالغيوم، تكتنفه الظنون والهموم. ما أحوجنا أن نبحث عن مرايا مستوية، لا مُقعرة فنغتر، ولا محدبة فنتصاغر. مرآة مستوية تخبرنا بمكامن قوتنا وضعفنا. نرى فيها ذواتنا دون زيف أو تنميق. نتحدى أنفسنا، فتعلو هاماتنا. حينها، يمكننا أن نقول لا، غير عابئين بعواقب. حفظ الله الوطن.

جريدة الأهرام المسائى – ٢ ديسمبر ٢٠١٦

لنـدن ستـان

شـاب ذو مـلامـح آسـيـوية. لندنى المولد. نشـأ فى أسـرة أقـرب إلى الفقر منها إلى الحال المتوسط. حصل على ليسانس الحقوق. انشغل بحقوق الإنسان. انضم إلى حزب العمال منتصف التسعينات. انتخب فى مجلس العموم البريطانى عام ٢٠٠٥، وهو دون الخامسة والثلاثين من العمر. تنقل فى حكومة الظل وزيراً لشئون البيئة، ثم وزيراً للنقل، فوزيراً للعدل. اُشتهر بعمله على توفير مظلة أمان اجتماعية للفقراء وذوى الدخل المتـوسـط. "صـديق خـان" تولى عـمـودية لندن منذ أيام قلائل. لتتسابق الصحف العربية على نحت صفات تذكرنا بأصله ودينه لا بعمله.

للدين مكانة خاصة فى القلوب، سواء أديان سماوية أو معتقدات. تشـهد المعابد الفرعونية صوراً مختلفة لتراث دينى ترسخ فى نفوس المصريين، تعددت فيه الآلهة، إلى الحد الذى تساءل معه الفرعون "ما علمت لكم من إله غيرى". وباعت الكنيسة الكاثوليكية صكوك الغفران فى سبيل الثراء. وسعى كريستوفر كولمبوس إلى مد النفوذ الكاثوليكى إلى ما وراء البحار.

الشـرق، مـهـد الأديان كافـة. بُعث سيـدنا مـوسى من مصـر. وولد السيد المسيح فى بيت لحم بفلسطين. وانتشر ضياء خاتم النبيين من

الجزيرة العربية. جاء الدين ليؤسس علاقتنا بالخالق. يحدد الضوابط والأحكام. الثواب والعقاب، مؤكداً على خصوصية العلاقة بين العبد وربه. لم يمنح أحداً من البشر سلطات إلهية. فى مفهومة البسيط، يُصبح الدين سيارة نرتقى بها فى عوالم الإنسانية الرحبة. فى مفهومة المعقد، يحمل المتطرفون السيارة فوق رؤوسهم آملين صعود الجبل. هيهات، هيهات، بعد أن صار الدين همٌ تنوء به النفوس.

طيبةٌ هى الصحافة فى عالمنا العربى. تتبارى فى إطلاق كُنياتٍ غير تقليدية. لُقب الراحل محمد أنور السادات بالرئيس المؤمن. اختلفت الروايات حول التسمية، إلا ان استمرارها خلال فترة حياته أوحى بشئ من رضا، أو عدم ممانعة على الأقل. كان الرئيس الراحل فريداً فى رؤاه وسياساته. براجماتى من الطراز الأول. قاد الحرب. وبادر بالسلام. اختلف معه المقربون. دفع من دمه الخالص –حتى مع وصفه بالمؤمن– ثمن تفرده وتميزه.

قبيل وبعد انتخابات عمودية لندن، لم تشر جريدة عربية لصديق خان إلا وألصقت صفته الدينية باسمه، حتى ظننت ان اسمه "صديق خان المسلم". لم نبرأ بعد من ولعنا بالتصنيف. تسأل جارك من هذا الرجل، فيذكر لك اسمه، ثم يضيف (متطوعاً) المسلم، المسيحى، المعارض، المؤيد، البخيل، المبذر، وغيرها من صفات.

لم تكن المنافسة على المنصب سهلة أمام صديق. زاك جولد سميث

المنافس الأبرز وممثل حزب المحافظين الحاكم. مليونير. يبلغ ٤١ عام ويصغر صديق بأربع سنوات. بدلاً من تقديمه حلول وآليات ينتظرها الناخب اللندنى، ركز هو والسيد كاميرون (رئيس الوزراء) على وصف صديق بأنه قرين الإرهاب ونسوا تقديم برامج عمل ذات قيمة.

لم ينشغل الناخب اللندنى بمحاولات الصحف العنصرية إبعاده عن صديق كونه من أصول غير انجليزية، ولا بالتحذيرات المتتالية من تحول العاصمة البريطانية إلى "لندنستان" على غرار باكستان وافغانستان. فى تلك الدول يبحث الناخب عن قائد يتبعه حتى حين. يمضى به على طريق التقدم. يسلم الراية من بعده إلى قائد آخر يعرف الطريق. صديق خان أحد أولئك القادة. شهد له تاريخه بالعمل الجاد والمثابرة والتطوير، تقديم حلول ابتكارية، احترام فئات المجتمع كافة، حياديته فى التعامل مع الأعراق والأديان، وقدرته على استيعاب الجميع. ليس هذا ما يحتاجه أهل لندن فقط، بل والقاهرة أيضاً.

جريدة الأهرام المسائى – ١٣ مايو ٢٠١٦

الهويات القاتلة

ما أن وطأت قدما أمين معلوف أرض فرنسا فى منتصف السبعينات مهاجراً من لبنان حتى واجهه سؤال، هل أنت فرنسى أم لبنانى؟. يبتسم فى مودة ويكرر الإجابة "هذا وذاك". لم يشفع له جواز سفره الفرنسى، وكتابة أعماله بالفرنسية من تكرار السؤال. ككاتب ومفكر من طراز مميز قاده التكرار إلى إصدار كتابه الماتع "الهويات القاتلة" استعرض فيه مكونات الهوية، مُحركات التصنيف، دور الدين والبيئة فى تأليف قلوب شتى تحت هوية تتدفعهم لتوجيه رصاص بنادقهم فى وجه الآخرين. سبل صهر الجميع فى سبيكة واحدة، وغيرها من الأمور ذات الصلة.

لكل منا هوية تختلف فى تركيبتها من شخص لآخر، حتى وإن اشتركنا فى بعض مكوناتها. فصفة عرب تضم مصريون، مغاربة، خليجيون. والمصريون، مسلمون ومسيحيون أرثوذكس وكاثوليك، منهم متعلمون وغير متعلمين. وهكذا يتفرع الأصل طبقاً لمستويات تقسيم مختلفة، إلا أنه يبدو متجانساً ما لم تستشعر فئة منه تحرش المجتمع بها.

تتطور هوياتنا وتتشكل على مدار الزمن. فى الطفولة يُشكلها الأهل بالخطأ والصواب. بالثواب والعقاب. تسكننا المعتقدات، والطقوس، والأعراف، واللغة الأم، والأحكام المسبقة، والمخاوف، حتى

إذا ما واجهنا الشارع / المجتمع صُنفنا. نستشعر الضعف. نأنس إلى أمثالنا. نفتقد الأمان. يضع أحدهم بندقية على المنضدة. يتكون فصيل مسلح، ثم تتداعى الأحداث.

مكونات الهوية واحدة، إلا أن ترتيبها يتغير تأثراً بالأحداث. مثال ذلك، ألمانى من أصول مصرية، يتحدث العربية والألمانية، عند سؤاله عن هويته فى ألمانيا يبادر أنه ألمانى، وفى دول الاتحاد الأوربى يفاخر بأوربيته، ويعتز فى وطنه الأم بمصريته، وفى الدول العربية بعروبته. ومع هذا، يطغى عنصر الدين فى صباح آيام الآحاد، فيتجاهل الكنيسة الكاثوليكية القائمة على ناصية شارعه مصطحباً أسرته إلى أخرى أرثوذكسية تبعد عن مسكنه حوالى ساعة بالسيارة.

منذ بدء التاريخ والهويات تتناحر عقائدياً أو عرقياً. اشتعلت الحروب الصليبية، والصراعات البروتستانتية والكاثوليكية، لأسباب عقائدية. أشعل هتلر العالم لأسباب عرقية. ومن حين لآخر تتجدد المواجهات بين الشرطة الأمريكية والمواطنين من أصول إفريقية. وما زالت رائحة الدم المتخثر فى باريس وبروكسل على يد فرنسيين ذوى أصول عربية حاضرة. ثم اعتداءات طالبى اللجوء على المواطنين فى أمريكا وألمانيا.

هل نستثنى الدين من تصرفات متبعيه؟. يتسائل الغرب لماذا تأتى دعوات القتل والعنف من مسلمين يتبعون ديناً سمحاً؟ يجيب الكتاب، لا

توجد علاقة. فباسم الدين المسيحى عرفت أوربا محاكم التفتيش، وصكوك الغفران، وتجارة العبيد، وتنصير مسلمى إسبانيا أو قتلهم، والمسيحية براء. لا توجد عقيدة سوية تحض متبعيها على سفك الدماء، ولكن يوجد مهاويس يفسرون نصوص الدين طبقاً لأهوائهم وأغراضهم.

للأسف، ترسخت مفاهيم التصنيف فى الكثير من الدول. نامية ومتقدمة دون تمييز. بيض وسود فى أمريكا، يهود وعرب فى فلسطين، هوتو وتوتسى فى رواندا وبورندى. أيضاً، صنف بعض المهاجرين مجتمعاتهم الجديدة على أسس دينية، فصارت بلاد كُفر ومنكر تستدعى التغيير باليد، واللسان، والقلب. أيضاً، صنفت كثير من الدول مواطنيها على أساس الوظيفة، والدين، والمكانة الاجتماعية، وغيرها. لتزداد الشروخ ما كَثُر التصنيف.

الهويات القاتلة، هى ما تضعنا فى موقف متعصب وأحياناً انتحارى. الهويات القاتلة، قد تصنعها الدولة وترسخ مفهومها، فيتحول قِسم من مواطنيها المسالمين إلى عدوانيين. فى مجتمع يُقَسِم ولا يوحد، يتهم ولا يُبرئ، يلوم ولا يُقَوِم، تتحول شرانق الأنا إلى مُدن فاضلة تستكين فيها الأقليات وترفض الآخر. تسمع وتقرأ وتقول ما تؤمن به، وليس ما يراه الآخرون. ليصبح "الآخرون هم الجحيم"، تماماً كما يقول سارتر.

جريدة الأهرام المسائى – ٩ ديسمبر ٢٠١٦

الأحزاب بين الخضر واليمين (٢/١)

تسبب ارتداؤه بنطلون جينز وحذاءً رياضياً عند أداءه اليمين الدستوريه كوزير للبيئة فى حكومة ولاية هيسن الألمانية عام ١٩٨٧ فى الكثير من الانتقادات، لم يشفع له أنه معارض يرى الملابس الرسمية سمة المسئولين الحكوميين فقط. ترك المدرسة الثانوية ليعمل باليومية، ثم مترجماً، فسائق تاكسى. انخرط فى الحركات الشبابية، وتدرج فى حزب الخضر. يقين يوشكا فيشر أن الاكتفاء بالمعارضة لن يحقق مكاسب للحزب أو لألمانيا دفعه إلى قيادة التيار الواقعى مطالباً المتشددين بالمشاركة الإيجابية. انتصر بفكره، فتولى وزارة الخارجية لسبع سنوات، وإيماناً بالتطور تركها فى هدوء ليعمل محاضراً بجامعة برنستون الأمريكية من دون شهادة جامعية.

على الصعيد المحلى، تشير صفحة الهيئة العامة للاستعلامات إلى ٨٤ حزباً، لم يتعد عمر كثير منها عدة سنوات. الانتخابات البرلمانية محك قاس، لذا دخل بعضها فى إئتلافات طلباً للاستئناس. الحصول على مقعد برلمانى لن يكون سهلاً، فما الذى يمكن أن تفعله تلك الأحزاب مستقبلياً.

تعبر تجربة كل من حزب الخضر الألمانى وحزب الجبهة الوطنية الفرنسى -بعيداً عن آرائهما السياسية والفكرية- عن التخطيط طويل

المدى، اعتماداً على نضج سياسى، ورؤية واقعية للأمور تجتذب الناخب الجاد الباحث عن حزب أو شخص يساهم بفاعلية فى العمل السياسى، ذو مصداقية وقادر على ترجمة أصوات منتخبيه. من ثم، نعرض فى هذا المقال لتجربة الخضر، على أن نتناول حزب الجبهة الأسبوع القادم -إن شاء الله- عسى أن تنتفع بها بعض الأحزاب الوطنية.

تأسس حزب الخضر فى أواخر السبعينات معلناً عن أجندة بيئية تحذر من مخاطر المحطات النووية وأسلحة الدمار، والانبعاثات الضارة داعياً إلى نظام بيئى يتصالح فيه الإنسان مع البيئة، كما نبه إلى قضايا الاضطهاد العرقى، والبطالة.

فى عام ١٩٨١ استطاع الحزب تخطى نسبة ٥٪ من إجمالى الناخبين بولاية برلين مما أهله للمشاركة فى برلمانها المحلى، وهو ما يشبه المحليات فى مصر. العمل لدخول البرلمان الألمانى "البوندستاج" استغرق ثلاث سنوات من التخطيط والالتحام برجل الشارع واستخلاص القضايا ذات الأولوية ليحصد ٢٨ مقعد عام ١٩٨٤، أى ٥,٦٪ من إجمالى المقاعد. المشاركة فى البرلمان نقلة نوعية تضعه فى دائرة مناقشة وصياغة القوانين.

فى أوائل التسعينات، بدا الصدام وشيكاً بين متشددى الحزب والواقعيين، الأول يرى ضرورة الاستمرار فى المعارضه والتمسك

بمبادئه وعدم الدخول فى شراكات، على النقيض يرى فيشر ومؤيدوه أن المبادئ تتطور وأن الاكتفاء بالنقد لا يبنى الدول، كما أن الأحزاب الأخرى ليست شراً يتقى.

تصويت الحزب لفيشر منحه الضوء الأخضر لتشكيل تحالف مع الحزب الاشتراكى الديمقراطى عين بمقتضاه جيرهارد شرودر مستشاراً لألمانيا عام ١٩٩٨، فيما حصل فيشر على منصبى وزارة الخارجية ونائب المستشار. واجه الخضر معارضة شديدة واتهامات عدة خاصة بعد الموافقة على مشاركة ألمانيا فى التحالف الدولى فى كوسوفو وأفغانستان. قرار الحكومة بالتخلى عن الطاقة النووية لم يشفع له.

الجمود والتباهى بموقف المعارض سرعان ما يفقد بريقه مخلياً الساحة لأولئك البراجماتيين المؤمنين بتطور العمل السياسى. حالياً يحتل الحزب المرتبة الرابعة ويشارك بفاعلية فى رسم سياسات الدولة. لا مكسب دائم ولا خسارة دائمة، تلك هى السياسة. التقييم الذاتى بعد كل جولة واختيار قيادة جديدة ترى المستقبل واقعاً يضمنان النجاح. فى قاعة الدرس يعلم فيشر تلاميذه أن المنصب ليس اسماً نحمله حتى الممات، بل وظيفة سرعان ما نتركها طواعية عندما نستشعر ضرورة التغيير.

جريدة الأهرام المسائى – ٢ أكتوبر ٢٠١٥

الأحزاب بين الخضر واليمين (٢/٢)

كانت صيحته "فرنسا للفرنسيين" سبباً فى توتر المهاجرين ذوى الأصول الفرانكوفونية. غريزياً يستدفئ مواطنو تلك الدول بالمظلة الفرنسية. عنصرية الرجل أزعجت حتى الفرنسيين أنفسهم. أسس حزب الجبهة الوطنية عام ١٩٧٢ ملقياً بمبادئ الثورة الفرنسية فى أقرب سلة مهملات، فلا حرية، ولا إخاء، ولا مساواة. أعطاه المتطرفون ذوى الأصول العربية الفرصة كى يكسب المتطرفين الفرنسيين. أربعون عاماً قضاها جان مارى لوبان فى زعامة الحزب وكره الإسلام فما حرك أحد ساكناً، لكن ما إن امتد لسانه لليهود حتى أقصته ابنته مارين. فلا أبوه، ولا تعاطف.

قضى الحزب سنواته من إخفاق إلى آخر، اللهم إلا من بعض المتشددين الذين ناصروه. ما إن تسنح الفرصة حتى يملأ لوبان وابنته فرنسا صخبا. الإخفاقات الفرنسية فى الداخل والخارج. مطالبته الجماهير أن يجربوه ولو لمرة واحدة. الهجمات الإرهابية، كل ذلك أعطى حزبه الفرصة ليفوز بأكثر من ١٠٪ من الأصوات فى الانتخابات المحلية الأخيرة. فاجئ الفوز الجميع. فوز الحزب فى الانتخابات الأوربية عام ٢٠١٤ يرفع أسهم مارين ذات العينين الخضراوين فى انتخابات الرئاسة المنتظر عقدها فى ٢٠١٧، هى لا تنتظر الفوز، فقط الدخول فى جولة الإعادة. المغالاة فى التوقعات تدفع

الناخبين نحو صندوق المنافسين.

استراتيجياً، استفاد الحزب من إخفاقات منافسيه. تعدد الأحزاب يعنى وجود منافسين يعملون بكل جد فى كسب الأصوات وإظهار ضعف الآخرين. الخبرة السياسية تحتم وجود استراتيجيات للتعامل مع المنافسين. الإسلام. الإرهاب. الهوية والهجرة. البطالة. التضخم. سياسات التقشف، وغيرها من الموضوعات حللها الحزب.

الفرنسيون الذين لا يرضون بأكثر من مائتى نوع من الجبن، على حد قول شارل ديجول ملمحاً إلى أن لا شئ يرضيهم، سأموا محترفوا السياسة متذرعين بأن لا نتائج إيجابية تتحقق. رجل الشارع يبحث عن وظيفة وبلد آمن. مارين تحذر، خلف كل مهاجر إما أن يفقد فرنسى وظيفته أو تفجير محتمل. ورثت مارين كره الإسلام من والدها، وزادت عليه، خاصة بعد حادثة مجلة شارلى إبدو ومقتل رئيس تحريرها بيد فرنسيين من أصول عربية .

على خلاف حزب الخضر الألمانى الباحث عن شركاء يبنون الوطن، يعمل حزب الجبهة المتطرف منفرداً. الأول يحافظ على مركزه على سلم الأحزاب والثانى يتأرجح بين لا شئ وبعض الشئ. الخضر وجدوا الاكتفاء بالمعارضة مضيعة للوقت فتحولوا إلى شركاء، والجبهة المتطرف يبحث عن فقاعات يجتذب بها المزيد من المتشددين واليائسين. تحقيق نسبة فى البرلمان ليست الهدف قدر العمل على بناء

وطن قوى يرتكز على التسامح.

محلياً، ما زال الطريق أمام الأحزاب الأربعة والثمانون طويلا. سوف تفرز انتخابات هذا الشهر المتنافسين. الإئتلاف والتحالف أمور عرضية. اندماج بعض الأحزاب يجعلها كتلة أكثر تأثيراً فى المستقبل. الإندماج يصهر الجميع.

ينظر رجل الشارع البسيط لأعضاء البرلمان على أنهم مصدر كسوة الأولاد، والمؤهلون للتوظيف، والسند عند الشدائد. مد الوعى إلى مساحات التشريع والتخطيط والعلاقات الداخلية والخارجية يحتاج إلى جهود مضنية فى بلد ما زال نحو ٢٦٪ من مواطنيه أميين، بخلاف نسبة أخرى من الفقراء لا يمكن تجاهلها. التعليم الجيد، والتأمين الصحى، وبرامج التكافل الاجتماعى مظلات يمكن أن تحميهم شرط تدبير التمويل. المشروعات الصغيرة والمتناهية الصغر يمكنها المساعدة. استنساخ بنك الفقراء "جرامين" الذى أسسه يونس تحت مبدأ "الفقراء هم الأكثر حاجة للاقتراض" تحتاج إلى تمصير. تطوير أداء مؤسسات تهالكت تحت وطأة عمالة مترهلة أغلبها غير مدرب تحتاج إلى أفكار جدية. الكثير والكثير يمكن أن تكون موضوعات جادة لأولئك الباحثين عن ناخبين يبنون الوطن.

جريدة الأهرام المسائى – ٩ أكتوبر ٢٠١٥

الرئيسة والسائق

"أقدم اعتذارى لكل الكوريين الجنوبيين عن كل ما سببته من فوضى بإهمالى بينما تواجه بلادنا صعوبات كبيرة بدءً من الاقتصاد إلى الدفاع الوطنى"، بهذه الكلمات المباشرة قدمت السيدة بارك جيون-هى رئيسة كوريا الجنوبية هذا الشهر اعتذارها للشعب بعد تبنى مجلس النواب قرار يحرمها من صلاحياتها بسبب شبهات فساد أدت إلى تظاهر مئات الآلاف مطالبين بإقالتها. القرار سابقة لم تحدث من قبل، وصدر بتوافق الحزب الحاكم والمعارضة.

بحضور قرابة ستة آلاف مشارك يتوجهم رؤوساء كبريات الشركات العالمية للطاقة المسئولين عن رسم خريطتها العالمية، افتتح السيد شينج هونج - ون رئيس وزراء كوريا الجنوبية أحد أكبر المؤتمرات الدولية، مؤتمر المجلس العالمى للطاقة بمدينة دييجو منذ نحو ثلاث سنوات، واختتمته السيدة بارك بكلمة قاطعها الحضور أكثر من مرة بالتصفيق إعجاباً وتقديراً بسيدة بدت بسيطة ومُقنعة ومحددة.

دييجو بلد التفاح وهو شعارها. تنتشر أشجاره فى الشوارع، والمكاتب، والمنازل، والطرقات، والمقاهى. لا يزيد ارتفاع الشجرة عن متر واحد فصاروا يزرعونه فى قصارى يزينون بها الزوايا والأركان. من هنا يعتقد الكثير من أهل المدينة أن ستيف جوبز، مؤسس شركة

آبل وأحد من أسهموا بابتكاراتهم فى تغيير الحضارة الإنسانية الحديثة، سرق شعار المدينة ووضعه على شركته. اعتقاد يقارب اليقين، حتى مع عدم مسئولية ستيف عن الشعار الذى اقترحه صديقه جيف ريسكن مدير مشروع آبل، عاشق تفاح الماكنتوش.

منافسة وحساسية مفرطة تؤطر مناخ عمل شركة سامسونج الكورية وشركة آبل الأمريكية فى سوق الهواتف الذكية والأجهزة الإليكترونية. مؤخراً، تلقت سامسونج ضربة موجعة إثر عيب فنى فى هاتفها نوت-٧ كبدها ١٧ مليار دولار خسارة مع اهتزاز ثقة المستهلك، وهو ما تجاهد الشركة لعودتها لسابق عهدها. سامسونج التى تأسست عام ١٩٣٨ على يد بيونج شول فى دييجو كمؤسسة لبيع الأرز والسكر مرت بمحطات تطور نوعية تحولت بمقتضاها لأحد أكبر الشركات العاملة فى مجال التكنولوجيا. بدايات متواضعة ونمو غير مسبوق.

يقع مركز مؤتمرات دييجو خارج المدينة، من هنا كان التاكسى الوسيلة الأكثر ملائمة لى فى مشوارى اليومى من الفندق البسيط، المفرط النظافة والنظام والباهظ التكلفة إلى قاعات مؤتمر الطاقة. فى بلد بنى حضارته وصدرها اعتماداً على لغته الوطنية يصعُب أن تجد من تتحدث معه بالإنجليزية. مع التاكسى، يُدخِل السائق عنوان وِجَهتِك إلى جهاز تحديد المواقع عبر القمر الصناعى، ثم ينفذ تعليمات توجيه

المسار الصادرة صوتاً وصورة. فى الصباح، أطلب التاكسى بالتليفون وأناول السائق عنوان قاعة المؤتمرات. وفى المساء أقف فى طابور الانتظار حتى يحين دورى فأسلمه كارت الفندق. سائقين شتى، والأدب الجم واحد.

فى أحد رحلات الإياب للفندق، بدا المسار أطول، والشوارع مختلفة، ومع السرور بالمشاهدات الجديدة فى المدينة النظيفة والمنظمة، انتابنى قلق حتى وقفت السيارة أمام أحد الفنادق الفارهة. نظرت للسائق باستغراب، فأشار لى بما يعنى "وصلنا". تلفت حولى فإذا المكان كله غريب. ناولته العنوان مرة أخرى، اتسعت عيناه، وضرب جبهته بقبضته. همهم بكلمات، وضم كفان متلاصقان متعامدان على وجهه وأحنى جذعه معتذراً، ثم مد يده فأغلق عداد التاكسى وعاود السير نحو العنوان الصحيح دون احتساب تكلفة إضافية. وصلت إلى فندقى فرد لى ما زاد عن أجره مصحوباً بانحناءات، ولسان حاله يقول "أكرر اعتذارى". شكرته وحدثتنى نفسى، شعب تربى على مكارم الأخلاق والمبادرة بالاعتراف بالخطأ، من السيد سائق التاكسى للسيدة رئيسة الدولة. تُرى، هل لذلك علاقة بتقدم الدولة وغياب التطرف فى كوريا؟.

جريدة الأهرام المسائى – ٢٣ ديسمبر ٢٠١٦

سنغافورة.. الولد المشاغب

أن تصحو ذات صباح فتجد نفسك مسئولاً عن قرابة ٢ مليون مواطن يتحدثون أربع لغات، متعددى الأعراق، فقراء. لا يزيد دخل الفرد فى العام عن ٤٠٠ دولار سنوياً. محاصرون فى جزيرة، لا نفط، لا غاز، لا معادن، لا ثروات طبيعية. باختصار نحن أمام دولة تقف على عتبة الصفر، إن لم يكن قبلها. كانت هذه حال سنغافورة فى أغسطس ١٩٦٥، وتساؤلات لى كوان يو رئيس وزرائها فى ذلك الحين.

بحكم الاستعمار، ظلت الملايو وسنغافورة تحت الوصاية الإنجليزية لأكثر من مائة عام. بنيل الاستقلال أوائل الستينيات دخلت الملايو وسنغافورة فى اتحاد تحت اسم ماليزيا. بعد عامين فقط أدرك الطرفان أن الفراق صار حتمياً. لا يمكن الاستمرار مع الولد المشاغب، هكذا وصف تونكو عبد الرازق رئيس وزراء ماليزيا سنغافورة. فى هدوء أعلن الاستقلال. هرع كوان إلى أكبر قوتين فى آسيا وإفريقيا، الهند ومصر، للاعتراف بالدولة الوليدة، مع طلبه المساعدة من عبد الناصر فى بناء قواته البحرية.

ما الذى يمكن أن تفعله حيال بلد فقير تملأ القمامة شوارعه. اتجهت نية كوان يو لاستقطاب الشركات العالمية للاستثمار فى سنغافورة، مع معرفته أن الأمر لا يتوقف على توجيه الدعوة ثم

الانتظار، فتلك طريق معروف سوء خاتمتها. التعليم، نقطة الإنطلاق الأولى. الغاية، إعداد أجيال متعلمة تعليماً يساير التطورات العالمية. الاهتمام بالتعليم التقنى على مستوى تخريج الفنيين والمهندسين. ترافق ذلك مع تأسيس بنية تحتية بمواصفات عالمية تشمل الطرق ووسائل الاتصالات والمواصلات وشبكات المياه والإمداد بالطاقة. أيضا، امتدت يد التطوير إلى إعادة تخطيط الدولة بدءً من الشوارع وانتهاءً بنظم إدارة حديثة تعمل تحت مظلة استقرار أمنى وسياسى وحكم ديمقراطى برلمانى نزيه يربأ بنفسه عن الفساد.

الطريق ليس سهلاً، وضع معايير جادة، ومحددة، وواضحة ليست نهاية المطاف، القضية تكمن فى التطبيق. كيف تجمع شعباً متعدد الأعراق. خطاباته للشعب لا يفهمها الكثيرون، حيث تتعدد اللغات. عادة، يبحث المواطنون عن القدوة. ذات صباح، استيقظت سنغافورة على كوان يكنس شوارعها، ينتقل من شارع إلى آخر. فى المساء عاد الرجل إلى منزله فى هدوء، فقد انتهى الدرس. فى الصباح، انتقلت المكنسة من يد كوان إلى أيدى المواطنين، لتنضم سنغافورة إلى عواصم النظافة والجمال. لا يخلو شارع من بهجة، ونظافة، وخضرة، وانضباط مرورى.

بالكاد تتعدى مساحة سنغافورة ٧٠٠ كيلومتر مربع، أى ١,٢٪ من مساحة سيناء. سوقت سنغافورة لموقعها الاستراتيجى لا كمعبر

وإنما كمصنع قادر على إنتاج وتسويق المنتجات العالمية بذات جودتها فى بلدانها الأصلية وبتكلفة أقل. تطوير الإنتاج يحتاج نشاط مكثف فى مجالات البحث والتطوير. حالياً، يعمل فى البحث العلمى حوالى ٥٠ ألف شخص بميزانية تصل إلى ثمانية مليارات دولار ليسجلوا فى العام الماضى فقط أكثر من خمسة آلاف ابتكار.

بعد خمسين عام من الاستقلال والدأب، بلغ إجمالى الدخل القومى قرابة ٤٠٠ مليار دولار عام ٢٠١٤ مقابل ٢٧٠ مليار دولار فى مصر. وارتفع عدد السكان إلى ٥,٥ مليون نسمة، ليصل متوسط نصيب الفرد إلى ٧٠ ألف دولار سنوياً، مقابل ثلاثة آلاف دولار لنظيره فى مصر.

لقد تغير الولد المشاغب كثيراً. تفوق على نفسه. صار يمضى من نجاح إلى آخر. امتزج الالتزام والنظام والاحترام بدماءه. فى مارس ٢٠١٥ ودعت سنغافورة لى كوان يو عن عمر ناهز التسعين عاماً، قضى منها ٤٠ عام فى منصب رئيس الوزراء، ليصير قدوة فى بناء الأمم، ويصبح شعبه نموذجاً للالتزام.

جريدة الأهرام المسائى – ٣٠ أكتوبر ٢٠١٥

سنغافورة .. يا له من عالم جميل

كان من المخطط الاكتفاء بمقال عن سنغافورة، إلا أن بعض من تفضل بقراءة المقال الأسبق "سنغافورة .. الولد المشاغب"، أستشعر سطوراً تنتظر الميلاد. ثراء التجربة يجعل اختزالها فى مقال معدودة كلماته مهمة صعبة، إلا أن خادمكم ملتزم بما تتفضل به الجريدة من مساحة تتزاحم فيها الأفكار وتئن منها السطور. كيف كانت التحديات التى واجهت الرجل. هل تآلف الشعب معه منذ اليوم الأول. كيف تمشى على حبل مشدود أسفله بحر وأعلاه نار.

أبداً، لم تكن التجربة سهلة على كوان يو. تتنازعه الضغوط. داخلياً، تتحرك الأحزاب ضده محاولة إبراز ضعفه وفشله. انشق عليه بعض أعضاء حزبه. ألبوا العمال ضده ودعوا للإضراب مع كل تشريع جديد. الموارد لا تكفى. خفض راتبه ورواتب الوزراء بمقدار الربع. الموارد لا تكفى. خفض رواتب كبار الموظفين فتحالفوا ضده. لم تسلم البلد من الكوارث الطبيعية فدفعت الحكومة الثمن.

خارجياً، ساعدت أندونيسيا المعارضة مالياً ولوجستياً. وحاولت الصين بسط المد الشيوعى على سنغافورة أملا فى فرض نفوذها على الجزيرة الإستراتيجية. حساسية العلاقات مع ماليزيا تؤرق مساء الحاكم. على الجانب الآخر، لا تزال انجلترا ترى فيها تابعاً وحليفاً

حتى بعد الاستقلال.

واجه كوان خصومه بشجاعة. حرص أن يقدم للشعب ما يعود عليه إيجابياً بشكل مباشر وفى وقت قصير فكسبه لصفه ودحض إدعاءات معارضية. دائما ما أكد على دور المواطنين مردداً "الحكومة لا تستطيع أن تعطى نتائج إلا إذا ساندها الشعب واستمر فى العمل معها. يمكن أن تُتَخْذ قرارات غير شعبية بالنسبة للجمهور، ولكنها فى مصلحة المجتمع ككل".

انشغل بصهر أطياف شعب ينعقد لسانه بين لغات المالوية، والماندارين، والإنجليزية، والتاميل. خلف كل لغة تكمن ثقافات، وعادات، وتقاليد، وأعراف. كيف تنحت هوية محددة واضحة المعالم تشرق من ثناياها أطياف الوطن لتتآلف فى ضفيرة من نور. تعدد الثقافات ثراء شرط أن تجمعها روح وطنية واحدة تسكن قلوب وعقول المواطنين فيتوارى جهل مدمر ما ينفك يمتد إلى خلفيات دينية وعرقية. من رحم تسامح كريم يجمع نحو خمسة ملايين مواطن تستقبل سنغافورة قرابة العشرة مليون سائح سنوياً قاصدين متاحف تفتح أبوابها مجاناً وتنظم جولات تفقدية تحت إشراف مرشدين سياحيين يتقنون فن الحكى والتشويق والألفة مع الزائرين. تنوع الحضارات بدءً من أساطير بوذا حتى حقائق وآيات القرآن المعروضة مخطوطاته المذهبه بقراءة وَرْشْ فى قاعة فيكتوريا التذكارية تؤكد وحدة الرابط

الإنسانى بين الشعوب. لا لون. لا عرق. لا مذهب. فقط، الإنسان هو المبتدأ والخبر.

إعلاء سلطة الشعب. تطوير القوانين لتعبر عن نضج شعب وثقت فيه قيادته فوثق فيها. ترسيخ ثقافة نسيان الأحقاد ليمضى أبناء الوطن يداً بيد، وقدم على قدم. الأكفأ هو الأجدر بالاستمرار مبدأ رسخة كوان يو. كيف تتحول البلد من طارد للكفاءات إلى مغناطيس يجتذبها من بقاع الأرض. كيف تبدو سنغافورة حلماً مراوغاً يطمح الكثيرون إليه، بينما تتدلل هى وتختار.

كيف يمكن استنساخ التجربة فى بلد قصده كوان مبهورا. واليوم اتسع الوطن لبنيه فضاقوا به، حنى عليهم فقسوا عليه، تسامح معهم فبغوا عليه. هناك، عند شاطئ نهر سنغافورة يقدم عرض يومى مبهر يمتزج فيه الماء والضوء والصوت والنار، يغادره المشاهدون وهم يرددون فى تفاؤل عنوان أغنية الختام "يا له من عالم جميل". حقاً. يا له من عالم جميل شرط أن ننسى أحقادنا.

جريدة الأهرام المسائى – ٦ نوفمبر ٢٠١٥

فندق الملوك

تلقيت، منذ بضعة أعوام، دعوة من الاتحاد الإفريقى لحضور مؤتمر وزراء الطاقة والمنتدى الإفريقى للاستثمار بالعاصمة الإثيوبية أديس، كما يذكرها الإثيوبيون. حطت بنا طائرة مصر للطيران حوالى الرابعة فجراً فى مناخ شديد البرودة على الرغم من أننا مازلنا فى نوفمبر. للوهلة الأولى، بدا المطار متواضعاً والجو كئيباً، إضاءة خافتة، تكييف شبه غائب، ومحلات السوق الحرة مغلقة، وتقريباً لا يوجد سوى ركاب رحلتنا فقط.

اتجهت إلى شباك الجوازات، نظر الضابط فى جواز سفرى وسألنى عن حجز الفندق، أخرجت خطاب الحجز، وقلت له وأنا أناوله إياه، "فندق الملوك Kings Hotel"، عقب الرجل معجباً، "رائع، فندق الملوك. إنه الفندق الذى شيده الإمبراطور هيلا سيلاسى لاستقبال رؤساء الدول المشاركة فى قمة أديس عام ١٩٦٣، حيث أُعلن عن إنشاء منظمة الوحدة الإفريقية"، ثم صمت قليلاً وعقب مبتسماً، "إنك محظوظ". شكرته وتناولت جواز سفرى وخرجت من المطار أجر حقيبتى بحثاً عن مندوب الفندق الذى ينتظرنى، بحسب تأكيدات البريد.

نَقَلتُ عيناى بين لافتات مندوبى الفنادق بصالة الوصول، سألت أحدهم عن مندوب فندقى، فهز رأسه بالنفى، طال انتظارى لنصف

ساعة، فتمتمت فى نفسى "بداية لا تسر"، ثم قررت أن استقل تاكسى. بعد سلسلة مفاوضات على السعر، انطلق التاكسى فى المدينة النائمة. ضباب كثيف. أعمدة إنارة نسيت الكهرباء منذ زمن. إضاءة صفراء باهتة تبعث على الغثيان. بضع سيارات متواضعة. طرق يتتابع فيها الأسفلت والتراب. منازل بسيطة، فيما تنتشر اكشاك الصفيح فى كل مكان مؤكدة أنها الملاذ الأكثر شيوعاً للأسر الإثيوبية.

بخبرة رجل مُدرب على فهم وجوه الغرباء بغض النظر عن لغتهم، قرأ السائق انقباض ملامحى، "اقتربنا ... دقائق ونكون فى الفندق" قالها وهو ينظر نحوى مبتسماً ليُطمئننى. دلفت السيارة وسط دغل شجرى، ثم لوى السائق اتجاهها ووقف أمام مبنى مظلم إلا من إضاءة شاحبة فى المدخل. "فندق الملوك، تفضل سيدى"، خاطبنى السائق، فاستشعرت أننا فى المكان الخطأ، فمن غير الممكن أن ملك أو رئيس سكن هذا الفندق فى يوم من الأيام. طلبت منه الانتظار ريثما أتأكد من صحة العنوان، أطفأ محرك السيارة واشعل سيجارته وجلس ينتظر، بينما دلفت للفندق فاستقبلنى الموظف ببشاشة، وأكد لى أننى فى المكان الصحيح.

استلمت غرفتى المتواضعة، أو بمعنى أصح ثلاجتى، فدرجة الحرارة دون العشر درجات ليلاً، بينما تصل فى النهار إلى العشرين، والمبنى غير مزود بوحدات تدفئة، والمياه الساخنة تتاح صباحاً من

السادسة حتى العاشرة، وبعدها على كل مغامر أن يتحمل عواقب فعله الأثيم. ارتديت كل ملابسى الصوفية وجوربين وتكومت فى السرير عشماً فى دفء غادر الفندق وأبى الإياب.

استمرت إقامتى ثلاثة أيام تعرفت فيها على معالم المدينة ولمست فى الشارع حلم بناء سد النهضة، وشكرت السيد السفير محمد إدريس (يعمل حاليا مساعد وزير الخارجية للشئون الإفريقية)، الذى أصر رغم مشاغله وارتباطه بسفر للخارج على دعوتى للغداء، ليخرج من المطعم إلى المطار مباشرة.

منذ أسابيع قليلة، وفى طريقى إلى كيب تاون بجنوب إفريقيا، نزلت ترانزيت بمطار أديس أبابا فراعنى تطوره وتحوله إلى نقطة ربط مركزية بين شمال القارة وجنوبها، صحيح لا يقارن بالمطار الجديد بالقاهرة والذى يضاهى أحدث المطارات العالمية، إلا أن مطار أديس عكس تطوراً تعيشه إثيوبيا وأهدافاً تعمل على تحقيقها ليل نهار، وما يبدو بعيداً تقربه المثابرة والعزم. أفقت من استرسالى وتذكرت فندقى الموعود وتساءلت، تُرى هل تطور هو أيضاً أم مازال على حاله، فندقاً للملوك.

جريدة الأهرام المسائى – فبراير ٢٠١٧

د. محمد مصطفى الخياط

mohamed.elkhayat@yahoo.com

ص ٢٢٨

صفحة بيضاء

صدر من هذه

السلسلة

١- محمد (ص)
٢- صدام الحضارات
٣- عصر الجينات
٤- القدس
٥- العولمة والعولمة المضادة
٦- التاريخ السرى للموساد
٧- من يخاف استنساخ الإنسان؟
٨- حريم محمد على
٩- عولمة الفقر
١٠- صور حية من إيران
١١- البحث عن العدل
١٢- لورانس: ملك العرب غير المتوج
١٣- الصهيونية تلتهم العرب
١٤- معارك فى سبيل الإله
١٥- التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية
١٦- التسوية: أى أرض.. أى سلام
١٧- المكنز الكبير
١٨- الحق يخاطب القوة
١٩- نساء فى مواجهة نساء
٢٠- مؤامرة الغرب الكبرى
٢١- روسيا.. إلى أين
٢٢- موسوعة الأم والطفل
٢٣- الخدعة الرهيبة
٢٤- نهاية الإنسان
٢٥- خدعة التكنولوچيا
٢٦- ٣٦٥ حتوتة وحتوتة
٢٧- بوش ضد العراق ... لماذا؟
٢٨- أين الخطأ ؟
٢٩- اللولب المزدوج
٣٠- رجال بيض أغبياء
٣١- سادة العالم الجدد
٣٢- الخطيئة الأولى لإسرائيل

٣٣- اللعب مع الصغار
٣٤- الإبادة السياسية
٣٥- حكومة العالم السرية
٣٦- ما بعد الإمبراطورية
٣٧- بوش فى بابل
٣٨- المقاومة العراقية.. ومستقبل النظام الدولى
٣٩- تزييف الوعى
٤٠- القانون فى خدمة من ؟
٤١- كفى
٤٢- معنى هذا كله
٤٣- حياة بلا روابط
٤٤- ٣٦٥ حدوتة وحدوتة
٤٥- أنا والعولمة .. عالم بديل ممكن..
٤٦- جسدى سلاحاً
٤٧- ثالوث الشر
٤٨- الحضارة الإسلامية المسيحية
٤٩- أمريكا العظمى.. أحزان الإمبراطورية
٥٠- الطَّريقُ إلى السُّوبَرْمَان
٥١- مدربون على القتل
٥٢- معاداة السامية الجديدة
٥٣- إبادة العالم الثالث
٥٤- بيولوچيا الخوف
٥٥- لغز اسمه الألم
٥٦- تعليم بلا دموع
٥٧- أحمد مستجير
٥٨- العين بالعين
٥٩- شاڤيز
٦٠- قصص الأشباح
٦١- حزب الله
٦٢- الإنسان هو الحل
٦٣- السيارات المفخخة
٦٤- بلاكووتر
٦٥- حضارتهم وخلاصنا

٦٦- نحو الحرية.. نيلسون مانديلا
٦٧- العهد
٦٨- مزرعة الحيوانات
٦٩- أطفال الإنترنت
٧٠- لعبة الملايين
٧١- تجارة الجنس
٧٢- الأمريكى الساذج
٧٣- الأبرياء
٧٤- الشباب والجنس
٧٥- التربية من عام إلى عشرين عام
٧٦- فلورانس وإداورد
٧٧- الجهاد فى سبيل الحقيقة
٧٨- غاندى (٢)، رؤى، تأملات، اعترافات
٧٩- شرف البنت
٨٠- الزواج المحرم
٨١- أنبياء مزيفون
٨٢- إمبراطورية العار
٨٣- اختطاف أمريكا
٨٤- شريعة الجستابو
٨٥- رومانسية العلم
٨٦- اختفاء فلسطين
٨٧- من هم إسرائيل
٨٨- ثلاثون كتاباً فى كتاب
٨٩- اقتصاد الاحتيال البرىء
٩٠- الله.. لماذا؟
٩١- الأمراض المعدية
٩٢- الطريق إلى بئر سبع
٩٣- مجمع الشيطان
٩٤- فى ذكرى المقاومة
٩٥- خطايا تحرير المرأة
٩٦- دساتير من ورق؟
٩٧- صُناع الملوك
٩٨- صناعة الأكاذيب
٩٩- عندما تحكم الصين العالم

١٠٠- الحركة العامة للاقتصاد المصرى فى نصف قرن
١٠١- رحلة السندباد
١٠٢- وجه أوباما الأبيض
١٠٣- تشى چيڤارا سيرة للنشء
١٠٤- أنا أقترض.. أنا موجود
١٠٥- قصة فيس بوك
١٠٦- غواية الرجال
١٠٧- بيل جيتس
١٠٨- تأثير إيران ونفوذها فى المنطقة
١٠٩- المعرفة فى خدمة الهيمنة
١١٠- البيتلز «سيرة للنشء ٣»
١١١- أسامة بن لادن «سيرة للنشء ٤»
١١٢- «كاليجولا» مسرحية من ٤ فصول
١١٣- المسلمون الافتراضيون
١١٤- القاعدة نهاية تنظيم. أم انطلاق تنظيمات؟
١١٥- مافيا إخفاء الأموال المنهوبة
١١٦- الدولة الدينية فى اليهودية والمسيحية والإسلامية
١١٧- مُرشد الوالدين
١١٨- أجيال فى خطر
١١٩- العرب.. رواد الفكر الاقتصادى
١٢٠- تركيا الأمة الغاضبة
١٢١- انقراض العالم الثالث
١٢٢- الثورة العربية والثورة المضادة أمريكية الصنع
١٢٣- الأقصى ينهار
١٢٤- مرشد المحتجين والثوار
١٢٥- الطاقة - لعبة الكبار
١٢٦- الإسلاموفوبيا

١٢٧- مصر كما تريدها أمريكا

١٢٨- حروب المياه

١٢٩- الدين ووظائفه السياسية

١٣٠- خطباء المساجد: من الدّعوة إلى التحريض

١٣١- عالم بلا إسلام؟

١٣٢- دليل الاستبداد والمستبدين

١٣٣- يهود «هوليوود».

١٣٤- «عزيزتى لورا» لغز وفاة المستر كورزييه

١٣٥- الإخوان المسلمون بين المعارضة والسلطة

١٣٦- رسائل من مصر

١٣٧- السودان.. صراعات المصالح ورهانات المصير

١٣٨- القيروسات عواصف وقواصف

١٣٩- الحجاب؟ الأصول - التنوعات - التداعيات

١٤٠- سرى للغاية... من إسرائيل!

١٤١- مسجد فى ميونيخ

١٤٢- الديموقراطية.. أشد الصادرات الأمريكية فتكاً

١٤٣- إمبراطورية رأس المال

١٤٤- الحرب القادمة بين مصر وإسرائيل

١٤٥- من أكون؟

١٤٦- العلاقات الزوجية والأسرية

١٤٧- حقول من الدماء .. الدين وتاريخ العنف.

١٤٨- تفسير الأحلام.. رحلة استكشاف.

المحتويـــات

إهـــداء .....
تقـديم .....

المحـــروســـة فى المقـالات

كلُ صباح وأنتَ بألفِ خيرٍ يا وطنى .....
أوجينى ١٨٦٩ .. المحروسة ٢٠١٥ .....
لوحـة على سطح القناة .....
حـضن الوطن .....
هذا المكان أُحـبـه .....
تأخرتُ رضوى .. فاعذرينى .....
الصـــرخـة .....
إمام المعلوماتية .....
الفارسُ لا يترجل .....
جمال بخيت وشعر العامية .....
لُغَتُنا الجَميلة .....
ســناء البيسى .....
سـيـد حـجـاب .....
كل واحد فينا وطن .....
حـــفنـة أرز .....

حكايات يوسف تادرس .....
حـــلٌ آخـــر .....
حـِملٌ ثـقـيل .....
الإدارة وأشـيـاء أخـرى .....
طفـولـة إدارية .....
نيوزيلندا اليوم ... مصر غداً .....
مصر وموزمبيق ... شراكات استراتيجية محتملة .....
بحـثاً عن مـقـهى .....
البـحث عن السـعـادة .....
صـــخب المســـاء .....
ثـقـــو بالذاكـــرة .....
المـمـــاليك .....
الدعاية الرقمية والانتخابات .....
الاختيـار الثانى .....
فى انتظـــار الغيث .....
السياحة المستدامة ... هدف مرتجى .....
ما بعد كتـاب ورغيف .....
الموسيقى لتنظيف المدينة .....

هموم من هنا وهناك

وطن فى حقيبة السفر .....
فى مدينة لا .....
ولا يوم طين .....
كتاب الجغرافيا .....
مكة .. مانهاتن .....
اللصوص لا يقرأون .....
صـــــورة .....
الانتظار والنسيان .....
نَفْثَةُ مَصْدور .....
الظِـل .....
جعفر التائه .....
تحت نعليك .....
غداً تُغردُ العصافير .....
حاشيةُ الأمير .....
اغتيال الأمم .....
اقتصاد دوت كوم .....
آت .....

أعداء الأمس أصدقاء اليوم .....
حضرة السيد واتس .....
التفكيرالعلمى ... عندما يتحدث العقل .....
ربع قرن من الاتحاد .....
أبيض وأسود ... لدى حُلم .....
أبيض وأسود ... دار الجبل .....
أبيض وأسود ... كم أنت ساذج .....
الغريب .....
بحثاً عن مرآة مستوية .....
لندن ستان .....
الهويات القاتلة .....
الأحزاب بين الخضر واليمين (٢/١) .....
الأحزاب بين الخضر واليمين (٢/٢) .....
الرئيسة والسائق .....
سنغافورة .. الولد المشاغب .....
سنغافورة .. يا له من عالم جميل .....
فندق الملوك .....

ص ٢٤٠

صفحة بيضاء